(4)
من سلسلة
الدراسات النقدية والتطبيقية
لأدب الأطفال

أنســـاق القيـــم

فى قصص الأطفال

"يعقوب الشارونى نموذجا"

دكتور
محمد فوزى مصطفى
جامعة قناة السويس
كلية التربية بالعريش

الطبعة الأولى
2013

الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس : 5404480 – الإسكندرية

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى عالم البراءة والصفاء/ الأطفال

obeikandl.com

obeikandl.com

أولاً : فى المنهـــج

obeikandl.com

obeikandl.com

أولا: فى منهج الدراسة

إن القيم التى تطمح إليها الإنسانية الرشيدة، هى القيم السامية النبيلة التى تشفى الصدور من نار الحقد وبراكين الغضب، وتطفئ نار الحرب، وتجعل الحياة آمنة سعيدة.

وفى الوقت ذاته توفر بكل صدق نعمة الأمن الداخلى والخارجى على حد سواء؛ ليجنى الإنسان ثمار السعادة. والقيم السامية تبدأ من حيث يكون الطفل، فهو البذرة الجنينية الأولى فى حقل البشرية.

وحيث إن الأدب – بوجه عام – يحمل رسالة قوامه جمال التشكيل الفنى، الذى يتمخض منه جمال المضمون فى نسق جميل، فإن أدب الأطفال – خاصة القصة – يُقدم قيمًا جمة ثرة لمرحلة الطفولة. ومن ثم كان لزامًا علىَّ أن أرصد ما يدور فى ساحة أدب الطفل العربى المعاصر من إبداع، وعندما أقول الإبداع، فإننى أشير فى المقابل إلى أن ثمة دراسات ومؤلفات كثيرة تدور حول تاريخ أدب الطفل عربيًا وغربيًا، والآراء فيه، والنظريات حوله.

obeikandi.com

وجُلُّ الدراسات شبه متفقة على التأريخ والتثقيف والتربية، وليس النقد والتقويم والتحليل؛ لإسهامات المبدعين. من أجل ذلك ارتأيت أن أرجع البصر والبصيرة فى نتاج أدباء الأطفال الذين لم يأخذوا حظًا من الدرس التطبيقى العميق؛ لما قدَّموه من إبداع أو اتباع .

وقد استرعى انتباهى النتاج الضخم للقاص "يعقوب الشارونى"[1] كمًا وكيفًا. وأتصور أنه توفر فى نتاجه القصصى– على ما يبدو لى وما سوف تثبته الدراسة – الموهبة القصصية، وتآلفها فى نسيج واحد مع حب صادق للإنسانية عامة، وللطفل خاصة. وبفضل الموهبة والحب الإنسانى حمل كاتبنا على عاتقه الإبداع القصصى للطفل العربى المعاصر. فاعتكف بعيداً عن معترك حياته القضائية بجلالها والسياسية بزخرفها؛ ليقدم أفضل ما ينبغى تقديمه لطفلنا العربى، فاحتل الصدارة ضمن قائمة رواد قصص الأطفال المعاصرين، وهذا كله رغبنى فى دراسة نسق القيم فى قصصه.

إضافة إلى ندرة الدراسات الأدبية المتعمقة فى قصص الأطفال "فقد اهتمت دراسات وبحوث مختلفة بثقافة الطفل أو بأدب الطفل ولم يتوقف أحد – تقريبًا – عند قصص الأطفال ليخصها بدراسة مستقلة"[2].

مع أن الأمانة العلمية تستلزم القول إن ثمة بعض أدباء الطفولة المحدثين والمعاصرين دخلوا ميدان قصة الطفل، فكانوا روادًا فى هذا الميدان. وفى طليعتهم: كامل كيلانى، وعبد التواب يوسف، وأحمد نجيب ... وغيرهم من رواد أثروا قصص الأطفال بنتاجهم، واستمدوا إبداعهم من التراث العربى، وخاصة من الحكايات والأساطير الشعبية والقصص على لسان الحيوان، وعلى وجه التحديد "ألف ليلة وليلة" و "كليلة ودمنة". إضافة إلى الاسترفاد من الأدب الغربى، بفضل ترجمة "رفاعة الطهطاوى" لقصص "عقلة الأصبع" وحكايات الأطفال. وقد ساعده فى ذلك بعثته إلى فرنسا، ثم سار على منواله "محمد عثمان جلال"، و"أحمد شوقى" و"محمد الهراوى" ... وغيرهم من رواد هذا الميدان الذين استتاروا من أدباء الغرب "كرائد أدب الأطفال فى فرنسا الشاعر (تشارلز بيرو) فقد كتب قصصًا للأطفال

تحت حكايات (أمى الأوزة وسندريلا) ولم تصبح الكتابة فى أدب الأطفال جدية إلا فى القرن الثامن عشر بظهور (جان جاك روسو) وانتشار تعاليمه من خلال كتابه (إميل) ثم ظهر الشاعر (لافونتين) وقرأ له (أحمد شوقى) وأطلق عليه اسم أمير الحكاية الخرافية فى الأدب العالمى. وفى بداية القرن التاسع عشر أخذ الكاتب (لويس كارول) يكتب للأطفال (أليس فى بلاد العجائب) وفى القرن العشرين ظهر كتاب مثل (ديكنز) و(بيتر ديكنسون) وفى الدينمارك يعتبر (هانز اندرسون) من أشهر كتاب الأطفال، ويعد رائد أدب الأطفال فى أوروبا. وفى أمريكا من أشهر كتاب الأطفال (هاريت تبشر)"[3].

فما لا شك فيه أن هذه الينابيع قد غذَّت موهبة "الشارونى"، وبزغت بفضل سفرياته وإطلالاته الواسعة على ما كتب فى أدب الطفل وثقافته عربيًا وغربيًا. لذلك نجده يحتل الصدارة فى آخر إحصاء تم فى سنة 2006 من حيث الشهرة "إن عدد 10 مؤلفين هم الأكثر شيوعًا، وهم بالترتيب: يعقوب الشارونى 44% أحمد نجيب 43% عبد التواب يوسف 41.3% ..."[4].

ولا أريد فى هذه السطور الوقوف عند روافد القصة الشارونية وجمالياتها فهذا الأمر سوف أتركه للدرس التحليلى وتشكيل القصة وأنساقها القيمية وهو الأهم. ولكن ما أريد أن أؤكده، أننى قد انتقيت من مكتبة "الشارونى" القصصية ما يتفق مع موضوع الدراسة "أنساق القيم فى قصص الشارونى" أو قل أن تكن الدلالة القوية حول القيمة المنبلجة بمفهومها الواسع، وما قدَّمه القاص من رؤى وفن.

وهنا يتم تحديد مشكلة الدراسة، وأعنى العلاقة بين منظومة القيم وقصص الأطفال المنتقاة من مكتبة الشارونى القصصية، وأثرهما على المتلقى/ الطفل العربى من خلال التحليل التكاملى للنصوص القصصية وتشكيلاتها، وكشف ما فيها من قيم متعددة.

فاخترت من سلسلته (مكتبتى) ثلاث قصص هى قصة "صندوق نعمة ربنا" كنموذج لتصوير العنف المدرسى ومعالجته بقيمتى الحب والسلام. وقصة "ليلة مظلمة فى نهاية شهر العسل" كنموذج لتجسيد مقاومة المستدمر/ المستعمر، والتوق للحرية كقيمة لحب والوطن.

ثم اصطفيت من سلسلة .. يحكى أن .. قصة "الجائزة وأنياب النمر"؛ لتشير إلى قيمة العمل الجماعى رغم سطوة وبطش الأقوياء. وقصة "قليل من الراحة فوق السلالم"؛ لتصوير فقدان قيمة الرحمة؛ بسبب العنف الاجتماعى الواقع على الطفل وحرمانه من الرحمة.

ومن سلسلة (المكتبة الخضراء) انتقيت قصة "دنانير لبلبة"؛ لاستجلاء القيم الإنسانية، وما ينبثق منها من قيم عظيمة متسقة أهمها: العطاء بلا حدود، أو قل قيمة الإيثار. وأخيرًا قصة "إنقاذ عازف المزمار"؛ لتصوير العنف بسبب الجهل، ثم مزية الرجوع إلى الحق والسلام، وهذا فى حد ذاته يُجسِّدُ قيمة التسامح.

فكاتبنا تناول الطفل فى قصصه من زوايا متعددة، ومن شرائح اجتماعية مختلفة، وقدَّم له قيمًا متعددة. ويبدو لى أن هذا المنحى يدل على ثراء القاص فنيًا وموضوعيًا.

وبناء على ذلك حاولت – متأملاً فى معمار القصة – التعرف على التشكيلات الجمالية لمعمارها، بكل ما يحوى من عناصر فنية تنبض بالجمال، وقيم مضمونية تحمل دلالات متعددة. ثم حددت إجراءات منهجية تكاملية للدرس،

تقوم على الرصد الدقيق، والتحليل الأسلوبى العميق للنص، واستجلاء ما فيه من سمات فنية، وإشارات تاريخية، وملامح اجتماعية، ورؤى سياسية، وأحوال نفسية، وعلاقة هذا كله بما انتقيته من قصص، ثم بالمرحلة العمرية للطفل؛ ليسهل وضعه فى سياقه الثقافى.

ثم وضعت نصب عينى حزمة أسئلة تكون محطات للبحث، وفى الوقت ذاته تعطى دفعة قوية لمسار البحث أهمها: كيف صوَّر القاصى أنساق القيم التى شغلته فى قصص الأطفال، من أجل إمداد الطفل بالقيم النافعة وفى الوقت ذاته تخليه فنيًا عن القيم الضارة؟

وهل تتفاوت أنساق القيم فى القصة بين الثبات والتغير حسب اتساقها سواء على مستوى الفرد أم على مستوى الجماعات وأثر ذلك على الطفل المتلقى؟ وما سمات قصة أنساق القيم عنده؟ وهل ما قدمه القاص من قيم تفى بمتطلبات الطفل فى هذا العصر؟ وهل راعى القاص الاعتبارات التربوية والاجتماعية والنفسية والفنية لمراحل الطفولة المختلفة؟ وماذا يريد القاص من الطفل وهو يوجه إليه خطابه القصصى؟

والأهم هل استطاع القاص الارتقاء بالطفل وإقناعه وتنميته بما قدم له من أنساق القيم بوساطة تشكيل فنى محكم يبرز العناصر الجمالية التى تجذب الطفل وتشوقه فى آن واحد؟

وهل كان البطل / الطفل والذى لعب – غالبًا – دور البطولة الرئيسة فاعلاً أم كان مفعولاً به؟ وبمعنى آخر: هل كان إيجابيًا أم سلبيًا؟ وهل اكتفى القاص بالسرد واعتمد على صوت الراوى "السارد" أم اعتمد على البطل ثم دَّعمه بالحوار؛ لإثراء جو القصة؛ لتنبض بالحياة والحركة؟ وهل نوع فى الأسلوب بالوصف؟ وهل جملة السرد كانت بسيطة أم مركبة؟

فجميع هذه الأسئلة / الأفكار، أتصور أنها علامات بحثية، سوف يتبلور منها – بتوفيق الله – التشابك الفنى والموضوعى لقصص أنساق القيم، واتساقها فى جدلية فنية، ومدى التقنية التى وظفها القاص؛ ليثير انتباه الطفل، ويغذيه غذاء وجدانيًا وفكريًا، يعينه على مسرح الحياة بكل آماله وآلامه، وأفراحه وأتراحه. وننتظر بشغف ما سوف يقدمه

الطفل فى مستقبله. لذلك سوف تحظى هذه الأسئلة بالإجابة فى ثنايا القسم التطبيقى من الدراسة.

أما القسم التنظيرى للدراسة، فأرى أنه لابد منه، لكى يمكن تحديد الإجراءات المنهجية للدراسة، ووضعها فى سياقها الثقافى. وفى الوقت ذاته حرصت على أن تكون للدراسة شخصيتها، مع الأخذ فى الاعتبار أن أى منهج لا يفرض تواجده على بساط البحث، بل إن لكل دراسة منهجها الخاص تستدعيه ويتسق معها، شريطة أن يأخذ المنحى العلمى الدقيق لذلك حاولت أن أدلى برأيي فى القسم التنظيرى قبل الولوج إلى ميدان التطبيق، مع أن غاياتى من هذا وذاك محاولة الإسهام فى إضاءة ساحة قصص الأطفال، بمثل هذه الدراسة.

وآمل أن تكون موفقة، فتتبعها دراسات أخرى فى التحليل والنقد لقصص الأطفال.

والله الموفق،،،

الباحث

هوامـش المنهـج

(1) يعقوب الشارونى:

ولد يعقوب إسحاق قلينى الشارونى سنة 1931 بالقاهرة حيث درس القانون، وحصل على ليسانس الحقوق سنة 1952، وحصل سنة 1955 على دبلوم الدراسات العليا فى الاقتصاد السياسى من كلية الحقوق بجامعة القاهرة.

وتقلد منصب مندوب هيئة قضايا الدولة، وفى عام 1967 تم انتدابه مديرًا للهيئة العامة لقصور الثقافة. وفى عام1970 تم اختياره مديرًا عامًا لثقافة الطفل، وأحيل إلى المعاش عام 1991. وما بين عام 1982 إلى 2008 عمل كأستاذ زائر لأدب وقصص ومسرح الأطفال بكليات التربية بجامعات حلوان والإسكندرية وطنطا.

وحصل على عديد من الجوائز فى مجال أدب الأطفال. ومن أهم السلاسل القصصية التى كتبها للأطفال موسوعة ألف حكاية وحكاية، والعالم بين يديك، وأجمل الحكايات الشعبية، وسبعة كتب ضمن المكتبة الخضراء للأطفال، وسلسلة أجمل الحكايات وسلسلة حكايات الأولاد والبنات وسلسلة الطفولة فى كل شئ. انظر: محمود قاسم: موسوعة كتاب الأطفال فى الوطن العربى ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب 2007، ص287.

(2) **د. محمد حسن عبد الله:** قصص الأطفال أصولها الفنية روادها ط. العربى د. ت، ص8 ومن الدراسات عن أعماله الأدبية، انظر:

- فريد محمد معوض: أفراح وأحزان طفل هذا الزمان. دراسات حول مشكلات الطفل فى أدب الشارونى ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب 2008، ص57.
- محمود قاسم: موسوعة كتاب الأطفال فى الوطن العربى ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب 2007، ص287.
- د. أميمة منير جادو: قراءات فى أدب الأطفال. يعقوب الشارونى نموذجًا. المركز القومى للبحوث التربوية.
- الإبداع فى أعمال كاتب الأطفال يعقوب الشارونى. كتاب صادر عن المجلس القومى لثقافة الطفل وزارة الثقافة مصر.
- وجل الدراسات السابقة تتجه نحو إبراز القيم المضمونية دون التوجه نحو العناصر الفنية للقصة وما بها من جماليات.

(3) **هيفاء شريحة:** أدب الأطفال ومكتباتهم ط. المطبعة الوطنية عمان 1983، ص20- 21.

(4) **أمين بكير:** الفكر والخيال فى أدب الأطفال ط1. الهيئة المصرية العامة للكتاب 2006، ص120، وانظر: د. حسن شحاته: أدب الطفل العربى دراسات وبحوث، ط2. الدار المصرية اللبنانى 1994، ص137.

obeikandl.com

ثانيًا : فى التنظير

1- مفهوم نسق القيم.

2- أنساق القيم فى قصص الأطفال.

3- معيار نجاح قصص الأطفال.

obeikandl.com

obeikandl.com

1- مفهوم نسق القيم

المراد بنسق القيم لغويًا: نسق الشئ نسقًا: نظمه. يقال نسق الدُرَّ والكلام: أحكم نظمه. وناسق بين الأمرين: تابع بنيهما ولاءم (نسقه): نظمه. و(انتقت الأشياء): انتظم بعضها إلى بعض يقال نسقها فانتسقت.

ويفهم من المعنى المعجمى أن أنساق الكلام: إحكام الكلام على نظام فنى مؤثر، وكذلك أنساق القيم: انتظام القيم دون خلل بحيث يؤدى انتظامها إلى قبول المتلقى أما مفهوم القيم من الناحية المعجمية. فالقيم لغة: الاستقامة والاعتدال والاستواء ... وقومته عدلته فهو قويم ومستقيم. وقيمة الشئ قدره وقيمة المتاع ثمنه[1].

ومن المفهوم اللغوى ينبثق المفهوم الاصطلاحى للقيم – على الرغم من صعوبة تعريف جامع – وإن اتفق على أنها "مقياس أو معيار نحكم بمقتضاه ونقيس به ونحدد على أساسه المرغوب فيه والمرغوب عنه سواء كان هذا المقياس هو الإنسان أو المجتمع أو الله"[2].

وللقيم أهمية اجتماعية؛ لأنها "جزء هام من ثقافة المجتمع التى تشمل أيضًا السلوك الاجتماعى والمعتقدات والقوانين، وكل نتاج المجتمع يتم نقله عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية التى تستمر طوال حياة الأفراد لإكسابهم وظائف لها دور فى المجتمع"[3].

وثمة من قسمَّ القيم على أساس "علاقتها بما هو مادى وبما هو روحى ومن قسمها حسب الأبعاد مثل بعد المحتوى والمقصد وهناك من قسمها على أساس سيكولوجى وسيسولوجى"[4].

فالقيم قد يكون مصدرها الدين/ القيم الدينية، وقد يكون مصدرها الإنسان/ القيم الإنسانية. ومما لا شك فيه أن القيم السامية والمثل العليا تسترفدان من الدين؛ فهو خير نبع يؤخذ منه القيم؛ لغرسها فى أرض الطفولة من خلال أدبه.

"آن لأدب الطفل أن يتجاوز تحقيق المتعة والتسلية؛ ليسهم بشكل فاعل فى بناء هذا الطفل بناء سليمًا، وتهيئة رجل الغد للمهام المنوط به، تهيئة حضارية سوية، خاصة ونحن نستقبل القرن الحادى والعشرين، بما يرهص من

متغيرات كبيرة وخطيرة، تستوجب الاستنفار لكل الأجهزة والمؤسسات المعنية بأمر الطفولة"[5].

فأدب الأطفال ليس أدب متعة فحسب – وإن كانت المتعة من أولويات أدب الأطفال – ولكنه يحمل رسالة تظهر من إطار الفائدة فى عملية اتزان فنى دقيق. وإن اكتفى البعض بالمتعة الفنية "فأدب الطفل الكلام الجيد الذى يحدث فى نفوس الأطفال متعة فنية سواء كان شعرًا أم نثرًا وسواء كان تعبيرًا شفهيًا أم تحريريًا، ويدخل فى هذا المفهوم قصص الأطفال ومسرحياتهم وأناشيدهم"[6].

2- أنساق القيم فى قصص الأطفال

إذا كان الأدب بوجه عام "هو الكاشف الحافظ للقيم الثابتة فى الإنسان والأمة"[7] فلابد من تجلى القيم بأنساقها المتعددة فى أدب الأطفال، وينبغى أن تكون من الأهداف المنشودة لكل كاتب أطفال "وتظل القيم هدفًا رئيسًا فى قصص الأطفال؛ لأنها نسيج القصة وليست الأرضية التى يرسم عليها، فتشرب الكاتب بالقيمة يجب أن يظهر فى كل ثنايا القصة وفى كل خيط من خيوطها، والقيم من المرونة والالتحام والترابط بحيث تظهر بأكثر من وجه مع غيرها

من القيم، على أن تظل هناك القيم الأساسية، ولا يجوز أن يضحى بقيمة ثانوية تكريسًا للقيمة الأساسية، والقيم متحولة فى مفهومها، وفى أساليب تطبيقها من زمن إلى آخر"[8].

إضافة إلى تعدد القيم من قيم دينية، وقيم اجتماعية، وقيم وطنية، ثم القيم الجمالية، التى تجعل نوعًا من الألفة بين الطفل والعالم من حوله فى شتى مظاهره وعندئذ يستمتع الطفل بالجمال ويعشقه، فينعكس على سلوكه وانطباعاته الإنسانية وحينئذ تقوى القيم، وتصبح عنصرًا مشتركًا لعديد من القيم، والتى لا تعرف الاستقرار أو الأمن إلا فى وجود مظلة أدبيات القيم البناءَّة التى تقدم للطفل، وعلى وجه التحديد (القصة) شريطة أن تكون ثرة بكل فكرة وخيال، ومتعة وإثارة وتشويق وفائدة، تجعل من الطفل طفلاً متزنًا فى شخصيته، إيجابيًا فى مجتمعه، محبًا لكل القيم السامية وفى مقدمتها القيم الدينية، ساعيًا بكل صدق نحو تحقيق وترسيخ القيم الإيجابية.

"وتأتى القصة فى مقدمة أدب الأطفال وإن كان هناك من لا يراها وسيلة ثقافية، غير أن الواقع يؤكد أنها وعاء لنشر الثقافة لدى الأطفال بما تحمله من أفكار وحقائق

تاريخية وعلمية وإنسانية متنوعة، وخيالات وصور، وقيم وأفكار"[9].

فالقصة المقدمة للطفل، عندما تطرح فكرة أو تعالج موضوعًا أو تسرد أحداثًا، فإنه ينبغى أن يكون محددًا، وأن يتم ذلك فى إطار معمار فنى جميل، متناسق العناصر والأجزاء سواء من ناحية البناء الفنى، أو من اتساق العناصر وتآلفها، بما تحوى من شخصيات محورية وثانوية، ومكان يضيف للطفل من ثقافته الجغرافية، وزمان يُوسِّعُ من ثقافته التاريخية. مع الأخذ فى الاعتبار أن تصور الكاتب للمكان والزمان مرتبط بالهدف التعليمى والأدبى، والنظر لدورها الفنى فى قصص الأطفال.

وذلك كله فى قالب أسلوب من سرد ووصف وحوار يساعد على جذب الطفل وتشويقه، ويُنمى ثروته المعجمية. ومن تسلسل الأحداث تسلسلاً جَّذابًا، وهى تنمو تصاعدًا نحو الذروة / الحبكة الفنية، حتى الوصول إلى نهاية الحدث / الحل، بما يتلاءم مع المرحلة العمرية للطفل العربى المعاصر.

وهذا كله لن يتم إلا من خلال قصَّاص موهوب، يحب الطفولة بصدق وخبير بأحوال الطفولة ومراحلها، ويستطيع أن يمس من طرف خفى لطيف ما يهم الطفل من القيم الإنسانية، والرؤى الاجتماعية، والأحداث التاريخية والآداب والقيم الدينية، أو قل القيم المتغيرة والثابتة.

وأن يكشف بيسر عن الأغوار النفسية، وإذا ما توفر ذلك كله استطعنا أن نقرر باطمئنان أن الطفل العربى قد حظى بجرعة التحصين الواقية من الآداب الهدَّامة، والثقافات الخدَّاعة، والفضل يرجع للشحنات الأدبية المليئة بالتفاؤل والإشراق، سواء داخل الأسرة أو المؤسسة التعليمية، فهما شريكان قويان لتنمو الطفولة فى مجتمعها نموًا صحيحًا صحيا، وحينئذ تظلل الإنسانية بمظلة الأمن والتعاون والرخاء، ونقول حينئذ إننا استطعنا تقديم رجل المستقبل.

وتطمح الدراسة إلى تحقيق جزء من ذلك، وهى تعيش مع قصص أنساق القيم، ومدى توفرها فى قصص الشارونى للأطفال، ولنتعرف على قدر قصة القيم عنده وأصولها الفنية، ومدى إجادة القاصى أو إخفاقه فى معالجته

لهذا الموضوع، والذى قدَّرة كاتبنا فى مقال له. وتثمينه ينبع من واقع إحساسه بمرحلة، الطفولة وأهميتها على مستوى الفرد والجماعة "يبلغ تعداد الأطفال فى العالم العربى حوالى 40% من سكانه أى حوالى 120 مليوناً من المواطنين العرب يقل سنهم عن 15 سنة ... إن بناء الإنسان العربى لا يمكن أن يبدأ إلا ببناء الطفل العربى وبغير الإعداد الواعى الشامل لثقافة أطفالنا، وبغير توجيه طاقات المجتمع كله نحو الاهتمام بهذه القضية، لن تتمكن الأمة العربية من أن تواجه بنجاح التحديات الهائلة التى يفرضها واقع العالم اليوم، وهو واقع يتغير فى سرعة، ويترك من الآثار أعمقها وأبقاها، خاصة وأن التأثير على أطفالنا واقع فعلاً"[10].

3ـ معيار نجاح قصة الطفل

يتوقف معيار نجاح القصة المقدمة للطفل، وتحظى بقبول حسن عنده، بقدر ما تقدمه من رسالة تنموية، وأعنى تنمية مدركات الطفل، من خلال تشكيل فنى ينأى بالقصة عن أسلوب التقرير والوعظ والإرشاد. فالقصة فى أدب الأطفال "فن أدبى يهدف إلى كشف أو غرس مجموعة من

الصفات والقيم والمبـــادئ والاتجاهـــات بواســـطة الكلمـــة المنثورة ..."[11].

فالقصة – كنوع أدبى رفيع – تشكيل فنى رائع، وعند اكتمال التشكيل يتم التوصيل "تعتبر القصة عملاً فنياً رسالته الأولى تتضمن أولاً: إثارة انبهار الطفل، والترفيه عنه وإسعاده، وهذا الانبهار يؤدى دون شك إلى إثارة ذكاء الطفل، وتذوقه للجمال الذى يزكى فيه حب الاستطلاع والكشف فضلاً عن التوافق الروحى والنفس ولهذا فالقصة باعتبارها عملاً فنياً تهدف إلى المتعة والترفيه أولاً ثم التثقيف ثانياً"[12].

والقيم الجمالية والمتعة هما من أهم معيار نجاح قصة الطفل. حيث إن قصة الطفل "هدفها الأساسى ورسالتها إبراز الجمال من خلا ل تصوير الحق والعدل والخير، كما أن دورها فى الحياة أن تمنح السرور والبهجة للطفل بإشباعها لحاجاته وتنفيسها عن مكبوتاته"[13].

إضافة إلى ما قدمناه من معايير جودة القصة المقدمة للطفل، فإنه من الأهمية أن تغرس القصة فى أطفالنا قيم الدين الحنيف؛ باعتبارها القيم الثابتة السامية، لتشرق حياته

ويسعد بدينه ويفوز فى أضراه "وأن تحيل بهم إلى جانب الخير والفضيلة والثقة والإيمان وأن تؤكد لهم انتصار الخير على الشر والإيمان على الكفر والأمل على اليأس، وأن يستخلص منها الطفل – من خلال تعامله معها – قيمتها وفكرتها التى تنفعه فى حياته وتثبت فى نفسه الآداب المنبثقة من دينه وعقيدته"[14].

وينبغى لقاصى الأطفال مراعاة المرحلة العمرية للطفل، فمرحلة الطفولة المبكرة / الخيال المحدود من (3: 5) فى حاجة إلى قصص بسيطة محددة المكان والزمان والأشخاص والأحداث، ومستمدة من البيئة، الطبيعة التى يحيا فيها، وحينئذ تكون أقرب إلى مدركات الطفل المحدودة. والطفولة المتوسطة / الخيال المنطلق الحر من (6 : 9) فى حاجة إلى القصة الخيالية. ومرحلة الطفولة المتأخرة من (10 : 12) يزداد نشاط الطفل فيكون فى حاجة إلى قصة قريبة من واقعة تتسم بالشجاعة والسيطرة والمغامرة.

ثم مرحلة البلوغ والمراهقة (12 : 15) والميل فيها إلى القصص العاطفية وتزيد فيها المثالية مع قلة الواقعية كالقصص البوليسية وغيرها. "وإذا تحقق عنصرا الانسجام والتناسق فى القصة، اللذان يربطان بين عناصرها المختلفة من حبكة فنية متينة، وموضوع جيد مهم للأطفال، وأفكار مترابطة ومناسبة وعقدة مثيرة، وشخصيات مقنعة وحيوية وجو صادق وأسلوب أدبى ملائم، فإن القصة تنجح فى تحقيق أهدافها ويقبل عليها الطفل بشغف"[15].

وسوف نجلى ذلك كله فى الجزء التطبيقى؛ لتتم الفائدة.

ويؤكد "الشارونى" من خلال وجهته التنظيرية على ثلاث ركائز رئيسة، يتم بها ومن خلالها تكامل محور مضمون ما نقدمه لأطفالنا من أدب "... يجب أن نركز أساساً على ثلاثة منطلقات رئيسية تؤكد على أن تكون الركيزة القوية لمضمون ما نقدمه لأطفالنا الذين سيحملون عبء تشكيل الحياة على أرض الوطن العربى فى الغد القريب. هذه الأسس الثلاثة التى يجب أن تكون محور

مضمون ما نقدمه لأطفالنا بمختلف الوسائل والسبل هىفى تركيز شديد:

أولاً: تنمية وتقوية الشعور بانتماء أطفالنا إلى وطن عربى واحد. فنحن الآن نعيش عصر الوحدة، عصر التعاون العالمى، العصر الذى لا حياة فيه لدول مفككة متباعدة. **ثانياً:** تنمية وتقوية إحساس أطفالنا بالمسئولية نحو المجتمعات التى يعيشون فيها، فلن تتطور مجتمعاتنا ولن تتقدم إلا على أيدى أبنائها ... **ثالثاً:** تنمية طاقات الأطفال الخلاقة ليصبحوا قادرين على تطوير مجتمعاتهم"[16].

ولأهمية قصص الأطفال، ودورها الفعَّال فى تنمية الطفل العربى، فقد وظف الشارونى كل موهبته لقصص الأطفال. وخاصة عندما أيقن أن الكم الكثير للقصص الموجودة فى ساحة أدب الأطفال، يفتقد روح الإبداع؛ لقلة الموهبة والخبرة ... على نحو ما قرر أن "أدب الأطفال فى اللغة العربية الذى كان إلى ما قبل ربع قرن يمر بأزمة وجود أصبح الآن يمر بأزمة جودة"[17].

فشتان ما بين أدب الطفل وثقافة الطفل. فهل استطاع "الشارونى" بتقنيات فنية فعَّالة، تخطى أزمة الكم الآن إلى جماليات الكيف، التى نادى بها النقاد "يجب أن تختار القصة الهادفة ذات القيم الفنية والجمالية وهى التى تدعو إلى القيم والأهداف السامية، وتشبع ميول أكبر عدد من القراء"[18].

وهل عَبَر الشارونى برؤيته التنظيرية لقصة الأطفال إلى ميدان التطبيق / الإبداع؟ أتصور أن هذين السؤالين، وما سبقهما من أسئلة تحتاج إلى إجابات من خلال ما قدمه القاص من قصص انتقتها الدراسة؛ لتفى بالهدف الذى من أجله قامت الدراسة.

obeikandl.com

هوامش التنظير

(1) **ابن منظور:** لسان العرب ط. دار المعارف مادة قوم، ص100.

مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط. باب القاف 1960، ص774.

مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ط. المطابع الأميرية 2003 مادة نسق، ص614.

(2) **محمد إبراهيم كاظم:** التطور القيمى وتنمية المجتمعات الدينية. المجلة الاجتماعية القومية منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية، القاهرة، 1997، ص11.

(3) **انظر: خير الدين على أحمد عويس:** علم النفس الاجتماعى والنشاط الرياضى ط. مكتبة الأنجلو المصرية 1984، ص110.

(4) **انظر: فوزية دياب:** القيم والعادات الاجتماعية. بيروت دار النهضة 1980، ص76.

(5) **د. سعد أبو الرضا:** اتجاهات حديثة فى أدب الأطفال ط. دار المصطفى 2007، ص400.

(6) **محمد محمود رضوان، وأحمد نجيب:** أدب الأطفال مبادؤه ومقوماته ط. دار المعارف، ص118.

(7) **توفيق الحكيم:** فن الأدب ط2. بيروت دار الكتاب اللبنانى 1973، ص10.

(8) **لينا كيلانى:** دراسات فى أدب الأطفال. مقال بعنوان: أدب الأطفال بين اليوم والغد ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب د.ت، ص157.

(9) **د. يوسف حسن نوفل:** القصة وثقافة الطفل ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب1999، ص22.

(10) **يعقوب الشارونى:** دراسات فى أدب الأطفال. مقال بعنوان: عن المضمون فى أدب الأطفال العربى وفى المجال الثقافى بوجه عام. اتحاد كتاب مصر د.ت.

(11) **د. أحمد حسن حنورة:** أدب الأطفال. مكتبة الفلاح الكويت ط1. 1989، ص107.

(12) **د. عواطف إبراهيم:** قصص أطفال دور الحضانة ط. الأنجلو المصرية 1984، ص8.

(13) **د. هدى قناوى:** الطفل وأدب الأطفال ط. مكتبة الأنجلو المصرية 2009، ص33.

(14) **نجيب الكيلانى:** أدب الأطفال فى ضوء الإسلام ط4. بيروت مؤسسة الرسالة 1996، ص54.

(15) **محمد حسن بريغش:** أدب الأطفال أهدافه وسماته ط2. بيروت مؤسسة الرسالة 1996، ص224.

(16) **يعقوب الشارونى:** دراسات فى أدب الأطفال. مقال بعنوان: المضمون فى أدب الأطفال العربى وفى المجال الثقافى بوجه عام، ص64: 67 بإيجاز وتصرف.

(17) **مجلة العربى، الكويت.** مقال يعقوب الشارونى ع359 أكتوبر1988.

(18) **د. حسن شحاته:** القيمة التربوية فى قصص الأطفال. الحلقة الدراسية الإقليمية لعام 1985 (القيم التربوية فى ثقافة الطفل) ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987، ص34.

ثالثاً: فى التطبيق

1- قيمة السلام فى المؤسسة التعليمية:
"صندوق نعمة ربنا".

2- قيمة الحرية للوطن: "ليلة مظلمة فى نهاية شهر العسل".

3- قيمة العمل الجماعى: "الجائزة وأنياب النمر".

4- قيمة الرحمة: "قليل من الراحة فوق السلالم".

5- قيمة الإيثار: "دنانير لبلبة".

6- قيمة التسامح: "إنقاذ عازف المزمار".

-هوامش التطبيق

oneelkanal.com

obeikandl.com

(1) قيمة السلام فى المؤسسة التعليمية قصة "صندوق نعمة ربنا"[1]

قد يتحول التلميذ العنيف المثير للمشاكل، إلى عنصر فعَّال لمجتمعه؛ بفضل المعالجة الحكيمة والمعاملة الحسنة. ومن ثم ترتقى المدرسة، وتتحول طاقة وإمكانات الطفل المشاغب من مفسد إلى عضو صالح ومتعاون لنفسه وللمجتمع من حوله.

وهذا كله مدار فكرة القصة التى معنا "صندوق نعمة ربنا". فالمغزى معاجلة العنف والخروج على النظام بحكمة وحب، وتحويل الطفل المشاغب إلى شُعلة من النشاط وواحة للسلام. مع قناعتى أن العنف أساسه الشعور بالعداوة فى النفس لعدم فهم الآخر، وعدم إفساح الطريق أمامه.

ويبدأ الكاتب القصة بقوله: "دخل الصبى مكتب مديرة المدرسة يصرخ وقفزت المديرة مندفعة ناحيته، وقد رأت الدم الأحمر يغمر رأس التلميذ الصغير ووجهه وكل ملابسه".

ومما لا شك فيه أن بداية القصة إحدى الأسس البنائية، التى يتوقف عليها – بقدر كبير – نجاح العمل القصصى أو سقوطه فنياً. وبداية القصة مُحمله بالمشاكل وتوتر الأحداث، مما استدعى سرعة الرد، وتجلى فى بناء العبارات "دخل الصبى – قفزت المديرة – رأت الدم".

إضافة إلى تعدد مستوى الصورة فمن صورة حركية: "دخل – قفز" إلى صورة سمعية "يصرخ" تبعث الشفقة ومعبرة عن الحدث. إلى صور بصرية مأساوية/ اللون / المأساوى "الدم الأحمر". فهذه البداية الفنية، تشوقنا إلى الولوج فى عمق الأحداث، وهنا يكمن عنصر الإثارة والتشويق.

والمفارقة وقوع الأحداث فى مكان للتربية والتعليم / المدرسة، وليس للعنف والقتال. فهذه هى الدهشة بعينها كما هو الشأن فى مسرح "بريخت" ونظريته "التغريب" التى تحث على التفكير فى الأمر[2].

فبطل القصة "عاصم" تلميذ مشاغب وذكى فى آن واحد، يثير المشاكل مع كل تلاميذ المدرسة. إذ أثار ثلاث مشاكل. الأولى: "... اندفعت بدرية تقول للمديرة: تصورى

يا أبلة سميحة عاصم يُمسك علبة الصلصة ويصبها كلها على رأس زملائه الصغار وملابسهم".

وهذا السلوك رد فعل لقراءته قصة "الأميرة والأقزام السبعة" كما ورد فى حواره مع مدرسته: "قال عاصم: الصياد أشفق على الأميرة، وتركها فى الغابة. ثم ضحك على عقل الملكة وأقنعها أنه قضى على الأميرة، عندما لَوَّث جزءاً من ملابس الأميرة بدم غزالة اصطادها".

فمثل هذا السلوك، هو إفراز طبعى لثقافة على نحو ما تشير نظرية أخذ الأدوار "أن الطفل يمارس أدوار الآخرين دون أن يفسرها وبتطور الطفل يزداد سلوكه الذى يأخذ فيه أدوار الآخرين"[3].

ويُعَزى بعض الدارسين المهتمين بقصص الأطفال، سر تقمص الطفل لشخصية البطل أنهم "إذا اندمجوا تماماً مع قصصهم فإنهم يتقمصون شخصية البطل أو شخصية آخر ... وقصص البطولة تتخذ أشكالاً مختلفة ولكنها جميعاً تنطوى على القوة المجردة أو الشجاعة الحقة أو الذكاء أو المجازفة"[4].

فبداية الأحداث أو قل توالى الأحداث بشكل سريع، يكشف عن تركيبة سيكولوجية معقدة لبطل القصة "عاصم" التلميذ المشاغب، الذى يمثل العمود الفقرى لربط عناصر القصة، والذى لا يأتى بخير، ومع ذلك يتسم بالشجاعة والصدق.

ثم يأتى الحدث/المشكلة الثانية من الطفل البطل؛ لينم عن سبر أغوار الشخصية وتأصل روح التمرد فيها: "... أما مدرس اللغة العربية، فقد جاء يدفع "عاصم" أمامه، وقد أمسك بيده كراسة الواجب المنزلى وهو يقول: تصوَّرى يا حضرة المديرة: أكلفه مع بقية التلاميذ بكتابة درس المطالعة عشر مرات، فيكتبه مرة واحدة، والباقى تم تصويره بورق الكربون!!

وصاحت المديرة فى عاصم: لماذا لم تكتب الواجب؟

قال عاصم فى إصرار: لقد كتبته!!

قالت المديرة: لقد كتبته مرة واحدة وليس عشر مرات!

ثم أضاف شيئًا أعجز المديرة جدًا ... لقد قال: هل حضرتك لديك صبر لتكررى كتابة شئ تعرفينه جيدًا عشر مرات؟!"

فمثل هذه الشخصية التى تنزع نحو الوعى والاستقلال والتميز، وكما يحللها علماء النفس "تتبلور شخصية الطفل، وظهور ما يسمى "الأنا" عنده، و"الأنا" هى الشعور الواعى للنفس، حيث ينظر إلى نفسه وكأن له شخصية متكاملة لها رغباتها ومتطلباتها، وتكون حدة الطبع فى هذا الدور أمراً سوياً"[5].

ويظل الكاتب بكل ما لديه من فنيات معمار القصص، أن يضفى على الأحداث مزيدًا من التعقيد حول شخصية البطل "الطفل. هذا البطل الذى انعكست صورته بكل ما تحمله من تمرد وتسلط وشغب، من خلال أقواله وأفعاله. وتجلى ذلك فى سرد الحدث بما يحمل من فنيات المعجم الدال على ذلك، والذى وظف بفنية من قبل الكاتب؛ لرسم الصورة بكل ملامحها ودقائقها: "يصرخ– الدم الأحمر – جزع – المشاغب – الشيطان – يتعاركون – الشر – المشكلات – العصابة".

فالأفعال بأزمنتها المتعددة، والنعوت باختلاف أشكالها، ترسمان صورة جلية لشخصية بطل جُبِل على العنف، وجلب المشاكل. فاللغة وصفت الأحداث بكل تقنية وفنية. "من الضرورى شحن قصص الأطفال بوجه خاص، والمواد التى تتناول حوادث بفيض من الأفعال، لأن الأفعال البسيطة الواضحة المعبرة تمنح الحدث والقصة نبضًا جديدًا يجذب الأطفال ويشدهم"[6].

وفى المقابل نجد حسن المعاملة، واستخدام أسلوب المسالمة من إشعاعات المعجم المعبر عن الفطنة والمسالمة "صوت هادئ – نعمة ربنا – تطوَّع – يعاونهم – أنشطة متعددة".

وتتأزم الأحداث؛ لتصل إلى ذروتها أثناء المونولوج الداخلى لمديرة المدرسة، وهى فى حيرة من أمر هذا الطفل العنيد. فتتنازعها عدة نوازع ما بين استئصال مثل هذا النموذج من الأطفال؛ حتى لا تتسرب عدواه لباقى التلاميذ، وما بين تواصله المدرسى بأسلوب تربوى حكيم. فتقرر تحويله إلى عضو نافع "وجلست أبلة سميحة مديرة المدرسة فى غرفتها تُحدث نفسها فى هدوء. كانت تقول: اشتغلت

بالتدريس للأطفال وصغار التلاميذ ثم أصبحت مديرة لهذه المدرسة، وقد انقضى على عملى بالتعليم ثلاثون سنة، لم أتسبب خلالها مرة واحدة فى فصل تلميذ من تلاميذى فصلاً نهائياً من المدرسة لكننى الآن أمام حالة لا أجد لها أى حلٍّ".

ثم تهتدى المديرة إلى حل مثالى، وكأنه علاج لشخصية البطل "عاصم، تقول المديرة لعاصم بحوار استفهامى عقلانى ينسجم مع طبيعة شخصية البطل" ما رأيك أن تقنع مجموعة من أصحابك أن تجمعوا من أرض الفناء (نعمة ربنا) التى يلقيها الصغار من بقايا طعامهم؛ لكى نقدمها للبط والدجاج الذى نربيه فى حظيرة المدرسة أ".

وحينئذ وافق البطل، حيث إنه شعر بإعادة الثقة إليه من قبل مجتمع المدرسة المحيط به، مع إشباع طاقته المتوقدة فى عمل نافع "زميلكم عاصم قام اليوم بعمل مهم جدًا، وقد قام به بكل أمانة وهمة، ولهذا نريد أن نصفق جميعًا لزميلكم الذى قام بهذا العمل".

ولنا أن نسأل هذا السؤال الذى يتطلبه البحث: ما سبب عنف البطل؟ هل البيت أم المجتمع أم التركيبة النفسية للبطل؟ ولم يشر الكاتب إلى أى شئ من هذا وهذا – على نحو ما أتصور – إنه متعمد من الكاتب، ليزداد النص ثراء ودلالات.

وإن كنت أرى أن البطل لم يحظ بالرعاية والاهتمام فى أسرته، فانعكس على سلوكياته مع رفاقه من التلاميذ، فى دفع المديرة إلى معالجة ظاهرة العنف عنده وتحويلها إلى طاقة إيجابية، فتولى زمام القيادة وإدارة صندوق نعمة ربنا ومع التلاميذ.

وتمضى الأيام، ويواصل البطل "عاصم" طريق الدراسة بنجاح وتفوق "وقد صار الآن أستاذًا فى كلية الطب، ومن أشهر الأطباء فى مصر". وكان الأولى أن تأتى نهاية القصة متفقة مع بدايتها، أو بمعنى أدق أن بطل القصة كان يميل منذ طفولته المبكرة – حسبما ورد فى بداية القصة – إلى قراءة القصص ومن ثم فإنه ميال بطبعه نحو عالم الإبداع الأدبى، وكنت أود – كتيمة طبعية – أن تكلل دراسة البطل بالولوج فى الآداب. وحينئذ تتفق البداية مع النهاية،

بدلاً من أن يكون أستاذ طب. وهنا يكون الكاتب قد نجح مرتين. الأولى: إتقانه الفنى حيث قبض بتمكن على عناصر القصة. والأخرى: عندما يُعلى من شأن المبدعين فى عصر غيض فيه الإبداع. وفى المرتين نقول إن الكاتب حقق قيمتين الأولى: فنية جمالية والأخرى: قيمة إنسانية توسم بالإنصاف وإن مالت نحو القيمة الأولى/ الجمالية.

والقصة تتميز بتوفر التشويق والإثارة والمتعة، فظلت الأحداث تتنامى والمشكلة تتزايد من خلال سلوكيات البطل، وقد تجسَّد من خلاله صورة الشقاوة والسلوك المنحرف لعديد من تلاميذ المدارس، الذين يثيرون الفوضى والعنف. وكأن بطلنا رمز لعديد من أطفال ضاعوا منذ طفولتهم، وخاصة مرحلة التعليم الأساسى؛ بسبب سوء المعالجة الحكيمة.

واستطاع القاص أن يجعل من شخصيته المحورية نموذجًا لفن التعامل مع شريحة تثير المشاكل فى المجتمع المدرسى، والذى ينبغى أن يكون واحة للقيم السامية فالعنف يقابله العفو؛ لتسود قيم السلام، وليس أدل على ذلك من رسم الكاتب لشخصية البطل. وأكده من خلال الوصف السردى

الدقيق للبطل، وانعكاسات سلوكياته وأقواله، إذ كشف فى سرده عن سير أغوار الشخصية، وكيف أننا نتعامل معها بكل قوة، فتأتى النتائج سلبية، والأفضل أن نرفق بها، ونوجه طاقاتها نحو البناء والتفوق "عاصم فتى متوقد الذكاء، شديد الحيوية، تتدفق من عقله، الأفكار الجديدة، وهو قادر على استيعاب المواد الدراسية بسرعة وكفاءة، لكننا نواجه مواهبه وقدراته باتهامه أنه مخرب ومقلق وشقى ومهمل وفاسد، لذلك كان يحاول أن يثبت ذاته، حتى إذا كان من نتيجة ذلك أن يتعرض لتأنيبنا وعقابنا".

فالبطل نموذج بشرى لمئات الأطفال، الذين أخذوا بشدة وغلظة؛ لعدم تريثنا فى المعاملة معهم. وكأن القاص يدق جرس الإنذار؛ للكشف عن موهبة الطفل وتنميتها تنمية متزنة، قبل إهمالها والقضاء عليها.

ويؤخذ على القاص أنه أتى بالحل من شخصية المديرة، والأولى أن يأتى حلَّ العقدة من الشخصية المحورية "عاصم"، بحيث يكون فاعلاً ومفكراً فيكون حله دراميًا. وعلى أية حال يمكن أن نعد المديرة بطلة مساعدة

للبطل الرئيسى، وأن تحويلها من شخصية ثانوية إلى شخصية محورية ساعدت فى دفع الأحداث وجعلها درامية.

ومن مزايا القصة قلة الشخصيات، ومحدودية الأحداث وعدم تشعبها وهذه سمة فنية لقصص الأطفال الجيدة، إذ تجعل الطفل يعيش مع الحدث دون أن يشعر برتابة أو ملل أو حتى نسيان.

ومما يزيد القصة جمالاً وجلالاً، قدرة الكاتب على تحويل شخصية البطل إلى شخصية إيجابية فَعَّالة ومتفاعلة مع المجتمع. فنهاية الأحداث اتسمت بالتفاؤل بعد ما أن بلغت الأحداث ذروتها من التعقيد، وعجزت الشخصية الثانوية عن حل العقدة. وكأن كاتبنا يشير من طرفى خفى إلى ضرورة إعطاء الطفل شحنة غير مباشرة من الثقة بالنفس مع شحنة من الحب والرعاية؛ فبهما يشعر الطفل بذاته وقيمته، وحينئذ يتغير سلوكه وتتغير مفاهيمه، فيصير واحة وارفة الظلال يانعة الثمار تؤتى أكلها كل حين.

ونلاحظ أن شخصية "عاصم" هى التى قامت بدور البطولة وانفردت بها. وإن كنت أميل مع الرأى القائل أنه "من الخطأ جعل قصص الأطفال قائمة على بطل مركزى

واحد بل ينبغى أن تشمل هذه الروايات على أبطال من الأطفال ونماذج بشرية تتمثل فيها الطفولة فى عدة نواحى من الحياة"[7].

واستطاع القاص أن يجرى أحداث القصة فى أهم الأماكن "المدرسة"، والتى تمثل التربة الخصبة فى إنبات البذرة / الأطفال، فإن كانت التربة خصبة فإننا سوف نجنى الثمار، وإن كانت تربة مريضة فإننا لا نجنى إلا الشوك، وفى هذا إشارة من القاص لكل مسؤل عن أمر الطفولة.

صحيح أن القصة مفيدة للطفل بما تحمل من فكرة ثرة، فهى تتناسب مع مرحلة الطفولة المتأخرة من (9 – 12 سنة) كسن بطل القصة "عاصم" لالتصاقها بالواقع، حيث الاشتراك مع الزملاء، وحب السيطرة والشجاعة "ويتضح فى هذه المرحلة زيادة نشاط الأطفال حيث يزيد ميلهم للسيطرة على البيئة التى تحيط بهم. وتتميز هذه المرحلة – الطفولة المتأخرة – بأنها فترة التعاون بين الجماعات التى ينتمى إليها الطفل"[8].

والقصة مفيدة لكل من يتولى أمر أطفالنا، كيف يتعامل تربويًا ويحفظ قيمة السلام فى المؤسسة التعليمية، خاصة مع مثل هذه النماذج المثيرة للمشاكل. فالقصة تمثل عنصرًا وقاسمًا مشتركًا بين الكبار والصغار. فالكبار فى حُسن إدارة الأزمات، والصغار فى المتعة والقيم.

أضف إلى ذلك جماليات القصة، وقد تجسَّدت بشكل قوى من خلال سرد فنى موجز مُعبِّر يتضافر مع الوصف وأسلوب الحوار (بقال وقلت) مع تداخل أسلوب الاستفهام المثير للتعجب والدهشة، وتكراره مرات عديدة: "وفى دهشة أشد عادت المديرة تسأل: أى تمثيل؟! ازدادت دهشة المديرة وغضبها وهى تسأل عاصم: هل فعلت هذا حقًا يا عاصم؟ وفى دهشة قالت المديرة فى تأكيد: لكن أساتذة الحساب يقومون هم بتصحيح كراساتكم!".

إضافة إلى تدعيم أسلوب القصة بأساليب استفهام تفيد الحيرة؛ لتعكس خطر الموضوع، وحيرة المديرة "كيف بعد هذا العمر الطويل، وبعد هذه الخبرة المتميزة، أجد نفسى عاجزة عن التعامل مع صبى صغير عمره عشر سنوات؟".

ثم توظيف أسلوب ينم عن قوة الشخصية للمديرة، والتى ينبغى أن تتحلى بها بصفتها مسؤوله: "قالت لها المديرة فى حزم قلت: اذهبى وتعالى وهو معك".

مع مزية السرد الجامع بين الفكر والوجدان، فكل هذا التضافر جعل معمار القصة متناسقًا ومتماسكًا، فلا شذوذ ولا نفور فى تشكيلاتها الفنية. أضف إلى ذلك جماليات الإيقاع السريع للفعل الماضى، والذى يتناسب مع أحداث القصة بسرعتها العفوية "دخل الصبى – شاهدت – قالت – طلبت". إضافة إلى بساطة اللغة وسهولتها فيمكن للطفل أن يقرأ القصة دون مساعدة من غيره.

واستطاع القاص أن يعكس شخصية البطل غير العادية، من خلال إجاباته الذكية على كل حدث أثاره. فمن ذلك قوله عندما بدَّل كراسات تلاميذ فصله "كنت أريد أن يتولى كل تلميذ تصحيح كراسة زميله" وفى الوقت ذاته لفتة ذكية إلى تقصير المدرس.

وعندما كتب واجب العربى عشر مرات بورق الكربون، علل ذلك بقوله للمديرة: هل حضرتك لديك صبر لتكررى كتابة شئ تعرفينه جيدًا عشر مرات".

فهذا الحوار الفنى يعكس لنا أننا مع شخصية متميزة، ولا ينقصها سوى التوجيه السديد والمعالجة الحكيمة. فالكاتب وظف تقنية حديثة من تقنيات القصة، وهى براعة الوصف بين الشخصيات وما تحمله من دلالات بكل يسر وسهولة. إذ اتسمت كل شخصية بصوتها الخاص المُعبِّر عن الحادثة، وفى الوقت ذاته عكست الحادثة صورة الشخصية.

وقد أجاد القاص فى كشف النقاب عن نعم الله التى لا تحصى فى توظيف شخصية الطفل بشموليتها؛ لتعكس كيفية الانتقال من الطالح إلى الصالح، وما الصالح إلا نعمة كـــ "صندوق نعمة ربنا". هكذا كان العنوان بقيمه الدينية، ومن أجل ذلك كانت النهاية السعيدة للطفل وللمجتمع من حوله "وقد نجح عاصم بتفوق فى امتحان الشهادة الإعدادية، وواصل تعليمه، وقد أصبح الآن أستاذًا فى كلية الطب، ومن أشهر الأطباء فى مصر".

وكانت المعالجة الفنية الحكيمة للقصة؛ من أجل تأصيل المبادئ السامية، وترسيخ القيم الإنسانية النبيلة فى نفوس أطفالنا، مع بث جو من المتعة، فكل ذلك عامل جذب للطفل، واكتمال لخطاب القصة بما يحوى من قيم دينية وإنسانية.

(2) قيمة الحرية للوطن قصة "ليلة مظلمة فى نهاية شهر العسل"[9]

فكرة القصة تدور حول حقيقة مؤداها، أن الطفل لا يندفع نحو العدوان إلا إذا وقع عليه أو على وطنه ظلم أو عدوان أو قيد، ومن ثم يأبى الاستسلام، فيتخذ من المقاومة وسيلة مشروعة لتحرير الوطن، وما أطفال الحجار فى فلسطين المغتصبة منا ببعيد.

ففى القصة تطل علينا شخصية التلميذ "فتحى" بطل القصة؛ ليثير سؤالاً محوريًا بنيت عليه القصة "الحدث الرئيسى"، وهو فصل الكهرباء عن مسكن مدرسه الإنجليزى وزوجته عن عمد "قال فتحى: عندما وصل "مستر جراى" وعروسه مع حلول الظلام إلى بيتهما بالدور الثانى من المدرسة ومعهما يوسف أفندى وكيل المدرسة وجدوا أنفسهم فى ظلام دامس، واكتشفوا وقد ملأهم الغيظ أن التيار الكهربائى مقطوع عن المدرسة كلها".

ويظل حدث قطع الكهرباء مسيطرًا على جميع الشخصيات / المدير والمدرس وزوجته المدرسة وصديق فتحى، والذى يقوم بدور شخصية محورية مع البطل، والذى يتساءل"من هو يا تُرى الذى نزع بريزة الكهرباء؟ ثم يجيب فتحى زميله: يظنون أن أحد تلاميذ المدرسة هو الذى فعل ذلك كنوع من الترحيب بعد حادث، فبراير الذى حاصرت فيه الدبابات الإنجليزية قصر الملك".

فإمداد القصة بمثل هذه الحادثة، يثرى المعلومات التاريخية للطفل، وفى الوقت ذاته يكشف عن شخصية الطفل الحر الوطنى "فتحى"، وقد تحدث عنه صديقه كومضى بارق يوضح سريعًا الشخصية الوطنية "وفجأة تذكرت أن أغلفة كراسات فتحى حافلة بعبارات مثل "يسقط الإنجليز" و"اخرجوا من بلادنا". وأنه كان يحكى كثيرًا عن اشتراك أخيه الأكبر فى مظاهرات المدارس ضد الوجود الإنجليزى فى مصر".

ومن هنا يتأكد الدور الرئيس لأدب الأطفال، فى تقديم رسالة ذات قيمة تتسم بالمتعة والثراء الفنى "يجب أن يعرف طفلنا ما يمكن أن يقابله من مخاطر وتحديات، وعليه أن

يتسلح منذ الصغر بالعلم والوعى، كى يشق طريقه نحو التحقيق ومن هنا يجب ألا نعزل الطفل عن واقعه، كما يجب أن يعرف تاريخه جيدًا من خلال نصوصنا الأدبية، فالمخاطر تتكرر مثلما يعيد التاريخ نفسه، لكن باستيعاب الدروس نتحاشى الأزمات"[10].

والسرد فى القصة بمثابة سير لأغوار شخصية البطل، والذى لم يأت إليه حب الوطن والرغبة فى الحرية من فراغ، بل من بيئة توَّفر فيها بشكل ملموس صادق حب الوطن وحب السلام فى آن واحد، وكما يقال: "حرب السلام"[11].

ويتوالى السرد بفنياته؛ ليكشف عن الفاعل الحقيقى "فتحى"، والذى شارك أبناء وطنه؛ لأنه تربى على قيمة حب الوطن، والرغبة الملحة فى تحريره "ورأيت فتحى بعد أحداث العدوان الثلاثى على مصر سنة 1956 وبعد رحيل آخر جندى إنجليزى من بورسعيد بعد فشل ذلك العدوان الذى تآمرت علينا فيه انجلترا وفرنسا وإسرائيل. وبغير مقدمات وجدته يسألنى: هل تتذكر بريزة الكهرباء التى أغرقت المدرسة فى الظلام يوم عودة مديرها الإنجليزى من

شهر العسل؟ ... وأكمل صديقى فتحى يقول: من حقنا الآن أن نقول أننا شـــاركنا فـــى مقاومـــة الوجـــود الإنجليـــزى فى مصر".

فعلى الرغم من قلة عدد الشخصيات فى القصة، ثم انحصار الحدث فى شئ واحد مركز/ المقاومة. مع مفارقة استرجاع الأحداث لواقعيتها، لكنها عكست حرص الطفل ومن على شاكلته من الأطفال على قيمة الحرية مهما كان ثمن التضحيات، وبدا ذلك فى تحويل ليل الظالم/ الإنجليزى إلى ليلة ظلماء.

وقد عبَّر العنوان عن المغزى، أو قل عن فكرة القصة. فثمة تشابه بين العنوان وأحداث القصة. فتوظيف الزمان بنعته "ليلة مظلمة"، فالليل بعمومه وشموله، ثم نعته بالظلام. فالظلام وإن بدا من ثنايا الحدث/ الظلام المحسوس لكنه رمز للظلام الذى حَلَّ بالبلاد، فى فترة وجود المستعمر الإنجليزى والشىء الثانى أو قل القسم الثانى من العنوان وهو "فى نهاية شهر العسل" من باب التأكيد ورمز لما تمتع به المستعمر من ثروات البلاد، لكن نهايته الظالمة كانت كليلة مظلمة بزغ بعدها فجر الحرية.

والطفل يأبى الظلم والعدوان، فهو رجل وإن بدا طفلاً، ويشارك بما يملك من أساليب – وإن بدت هينة – فى كيفية التحرر من ربقة الاستعمار، لينعم وطنه بالحرية وقيمها السامية "فالعنوان هو الشارة أو اللافتة البراقة التى تجذب الطفل وتشوقه، فينجذب إلى الكتاب؛ ليكشف ماذا وراءه. فمن العناوين ما يفرح الأطفال أو مما يتوارد إلى أذهانهم أو مما يتطابق مع ما يحملون أو يفكرون به[12].

ثم يصور القاص مشهد الترحيب بالمدرس الإنجليزى وزوجته، أثناء الطابور وتحية العلم، وهذا ما أزعج وأقلق الطفل، والذى يرى أنه من المفترض أن يكون الطابور – فى المقام الأول – للوطن، وتحية العلم رمز للوطن "غدًا سنحرص جميعًا أن نأتى قبل ميعاد طابور الصباح؛ لنشترك كلنا فى الترحيب "بمستر جراى" مدير المدرسة: إنه سيعود الليلة مع "فرجرارى" من إجازته فى الخارج" لكن الأمر تغير بتغير قوة الأجنبى وسطوته.

وقد تشكلت أحداث القصة وتجسدت فى مكان محدد "المدرسة"، وفى هذا دلالة على الدور الحيوى للمدرسة،

وأنها تخرج الوطنين ومصابيح الأمة، ودائمًا كانت مركز انطلاق مواكب الحرية.

على أية حال فإن القصة، تثرى خيال الطفل فى كيفية إيجاد حل لأى مشكلة تعتريه، مثلما لمسنا فى سلوك البطل عندما قام –فى حدود إمكانياته المحدودة ومعرفته البسيطة– بفصل تيار الكهرباء عن مسكن الأجنبى.

إذ ساهم خيال الطفل فى إيجاد طريقة ترضى ذاته وتلبى حاجة مجتمعه المحتل، وكما أكد علماء النفس والتربية والاجتماع على أن "للجو الاجتماعى الذى يعيش فيه الأطفال، أثره الكبير فى إشعارهم بالأمن والطمأنينة والاستقرار النفسى، وهذه فى جملتها دعائم أساسية وجوهرية لسلامة صحتهم الجسمية والنفسية ولتنمية خيالات الأطفال وابتكارهم"[13].

وفى القصة التى معنا، ينطبق عليها القول المشهور "الحاجة أم الاختراع" فإن ما فعله الطفل "فتحى" / البطل، بمثابة رد فعل لمجتمع غير مستقر، يموج بألوان شتى من أذى الاستعمار وذيوله، الذين خانوا الأمانة وقيمها السامية.

إضافة إلى ذلك ما تحتويه القصة من قيم أخلاقية، تجسَّدت فى التعاون بين البطل / فتحى وزميله عندما ستره؛ لمصلحة الوطن العليا / الحرية. والطفل بحاجة إلى أن يُشحن بمنظومة القيم الإيجابية، وفى مقدمتها قيمة حرية الوطن والانتماء الصادق له.

(3) قيمة العدل الجماعى قصة "الجائزة وأنياب النمر"[14]

إن قيمة العدل من أهم مرتكزات القيم الإيجابية للتضامن والتكافل والمساواة، أو قل العدل الاجتماعى، ولن تسود هذه القيم إلا بإنكار الذات، وقيام كل فرد بواجبه المنوط به من دون استكبار أو افتخار. فهذه القيم جميعًا تجسدَّت من خلال تشكيل فنى رائع فى قصة "الجائزة وأنياب النمر". فهى حكاية بسيطة على لسان الحيوان تصلح لمرحلة الطفولة المتوسطة "الخيال المنطلق"، والتشوق إلى الصور التى ترسمها مخيلاتهم. إذ تتميز ببساطة العرض، ووضوح اللغة، وجمال الأسلوب، وتوظيف الحيوان؛ لسرد الأحداث بشكل شائق وسهل ومفيد، مما يساعد على تنمية الخيال وتشكيل صور مختلفة، مع تنمية الذوق لأطفالنا،

والتعرف على ما حوله من حيوانات البيئة وطباعها المختلفة.

فمغزى القصة يحث على التعاون والعمل المثمر، فلولا قيمتا التعاون والعمل المثمر لصار الناس فى فوضى. وقد لعب الخيال دورًا فنيًا فى إيصال الفكرة ببساطتها دون إفراط أو تفريط "فالنص الأدبى الناجح هو الذى يشكل حافزًا لانطلاق خيال الطفل بما يشيعه فى جو النص من احتمالات، وما تثيره العبارات من دلالات، والنص الذى يجيب على جميع الاحتمالات، ويقتصر فى اعتماد الدلالات على معنى واحد إنما يأخذ على الطفل أجمل فرص استمتاعه ويقصى الجناح الذى يستخدمه فى التحليق والتعامل مع النص"[15].

فالأسد ملك الغابة كلَّف الفيل "بتخصيص جائزة لمن يقدم أفضل إنتاج، أو يقوم بأكبر مجهود مفيد، فاختار لجنة من النمر والذئب والثعلب لاختيار الفائز". فالقصة مبنية على شخصيات من الحيوان والطير، فهى محملة بالرمز ومن ثم ينبغى "أن يكون مفهوم الرمز واضحًا نتيجة العلاقات المتوازنة بين هذه الحيوانات والطيور وما ترمز

إليه، فلا يسترسل الكاتب فى وصف الرمز من الحيوانات والطيور حتى لا ينسى الطفل المرموز إليه أو العكس"[16].

والقصة ترمز إلى منطق القوة الغاشمة وإدارتها المستبدة لمقاليد الأمور، ولكن هل القوة بمفردها ممثلة فى "الأسد"، وقد اختار الفيل؛ ليشكل لجنة من النمر والذئب والثعلب، ليتفقوا على اختيار الأفضل. فهل يكفى لسير عجلة الحياة؟ وهل القوة بمفردها يمكنها تقديم كل ما تحتاجه الحياة الإنسانية؟ أم أن العمل الجماعى هو الأهم، ومن الأسئلة نفهم دلالة توظيف الرمز، ودوره الفعَّال فى دفع الأحداث من خلال الشخصيات؛ لتؤكد من خلال أسلوب السرد الجمالى الصادر من حوار الحيوانات، أن ما يحدث من سيطرة وسطوة القوة الكبرى فى هذا العصر على الدول الضعيفة، يؤدى إلى انهيار منظومة القيم السامية وظهور قيم سلبية بأنساقها المتعددة.

ومع صوت "الدبُّ" الأنانى المستبد، وقد رَّشح للجائزة "النحل"؛ لحاجته إلى ذلك الطعام "أنا أرشح النحل لجائزة أفضل إنتاج. إنه يعمل بغير توقف ساعات طويلة كل يوم؛ ليقدم لنا عسل النحل وهو أفضل الطعام وأحلاه". لكن النمر

اعترض على ترشيح الدب للنحل، وأرجع ذلك إلى عدم انتفاعه بالعسل – كصراع القوى الكبرى – يقول النمر: "لكننى لا أعرف شيئًا من هذا العسل. العسل لا يصلح طعامًا لى، لذلك لا يمكن أن تعطى النحل الجائزة".

وكأن "النمر الذى يمثل هو الآخر رمز التسلط والأنانية، بفضل قوته وشراسته، اعترض على ذلك. ثم أذن للقرد أنه يرشح ما يراه جديرًا بالجائزة. فقال القرد: أعتقد أن دودة القز يجب أن تفوز بجائزة أفضل إنتاج، إنها تقدم خيوط الحرير التى يصنع منها الإنسان أرق الأقمشة وأجمل الملابس".

ثم يظل النمر – الآمر الناهى– فى اعتراضه، ويأبى ترشيح القرد لدودة القز؛ لأنها تمد الإنسان، عدو النمر على حد قوله!! فمازال حوار النمر يقوم على الحقد والأنانية، ويعكس فى الوقت ذاته سلوكيات بعض الأفراد والمجتمعات كذلك رفض النمر ترشيح البقرة لنيل الجائزة "لكن البقر يرفض أن يعطينا نحن أسياد الغابة ما نحتاج إليه من لحم".

فمثل هذا الحوار القصصى التشويقى على لسان الحيوان، يعكس سلوك وتصرفات الأقوياء، والتى تفرض قوتها على الضعفاء؛ لرفضها الخضوع لهيمنتها أو قل إنه سلوك يصدر – غالبًا من بعض ذوى الكلمة والسلطان، مهما كان الاحتجاج والرفض من المستضعفين فى الأرض.

ولذلك تكمن أهمية القصة على لسان الحيوان للطفل أنها "تعطيه الفرصة للتعرف على نفسه كما تعطيه الفرصة لأن يطلق العنان لأحلامه وطاقاته الإبداعية"[17]. والطفل مولع بقصص الحيوان "فأثبتت الدراسات التى أجريت لتحديد الكتب المفضلة عند الأطفال أن قصص الحيوان أكثرها رواجًا وأشدها حبًا بين الصغار"[18].

ومن المزايا الفنية لأسلوب القصة، أنه لم يعتمد على المباشرة والسطحية، ولم يُفرط فى الغموض والترميز. فهو إشارة جلية لواقع معاصر "لأن الأسلوب الفنىفى أدب الأطفال لا يرحب كثيرًا بالمجاز والتشبيهات كى لا تضيع المعانى عند الطفل، ولو أننا لا نستغنى عنها فى لمحات برَّاقة يستطيع أن يلتقطها الطفل مما هو مألوف لديه أو مُحبب إليه أو يسرد بسرعة إلى خاطره"[19].

ثمُ يقدم القاص حوار الثعلب المكار، ونفاقه للنمر. وموقفه يرمز إلى أقوال وأفعال الوصوليين، أو قل شرذمة المنتفعين: "سيدى النمر إنك تبذل كل جهدك فى تخليص الغابة من كل حيوان ضعيف أو مريض فتقضى عليه بأنيابك ومخالبك الرحيمة، حتى لو لم تكن جائعًا. إن هذا الجهد الكبير الذى تبذله، يمثل أكبر صورة من صور إنكار الذات والاهتمام بالآخرين وحب الخير، إننى أرشحك يا سيدى النمر لجائزة أكبر مجهود وأفضل إنتاج".

فما كان رد فعل النمر إلا وأن "كشر عن أنيابه، ونهض على قائمتيه الأماميتين وضرب الأرض بذيله، فسكتت الهمسات كلها".

فمنطق القوة فرض نفسه على الجميع فى مجلس القوة والرعب، فلم يستطيع أحد أن يبدى أى اعتراض. فمثل هذه القصة تنمى خيال الطفل، وفى الوقت ذاته تثرى فكرة بمعرفة عالم الحيوان – على غرار كليلة ودمنة – ويعرف ما يدور حوله من سلوكيات، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة. وكيف أن ثنائية الخير والشر كخطين متوازيين، أو قل معركة ثنائية القيم مستمرة "إن القصة

الخيالية تعد عنصرًا من عناصر الثقافة المعنوية لا يُقدر بثمن. هو عنصر المشاعر والأحاسيس والثراء فى المشاعر والأحاسيس الإنسانية"[20].

ويؤكد "الشارونى" على أهمية إثراء خيال الطفل؛ لما فى ذلك من خلق صور جديدة، وإدراك لحقائق تعود بالفائدة على الطفل وعلى المجتمع من حوله "يجب أن نعمل على توسيع خيال الصغار، فغير الخيال الخلاَّق الواسع لن يكون هناك تقدم ولا تطور"[21].

وأكدت الدراسات الحديثة فى ميدان أدب الأطفال، أن الخيال غاية فى أدب الأطفال؛ لما له من دور رئيسى فى توسيع أفق الأطفال وإسعادهم "فشحذ الخيال وإغناؤه لدى الطفل والجرأة على أن يعبر بالخيال عما يريد هى من غايات أدب الأطفال؛ لأن الخيال أساس لكل نمو وعلم ومعرفة وتطور. والخيال بحد ذاته متعة للطفل، فالضحكة لا تنفجر إلا عندما تُحمل على جناح الخيال، ولا ننسى هذه الخاصية عند الطفل فى التقمص والتماهى واستنطاق الحيوان والجماد وتشخيص المحسوسات وإضفاء الروح عليها مما يذكى الخيال ويمد آفاقه"[22].

ومع ذلك كله فإن عجلة الحياة –مثلما ذكرت القصة– لن تتوقف، وسوف يظل مسرح الحياة، والكل يــؤدى دوره مهما لاقى من عنت أو طغيان، وسوف يستمر الأمل مادام العمل وروح الجماعة.

وأجاد القاص عندما أنهى قصته بهذه النهاية السعيدة المشرقة "ورغم فوز النمر بالجائزة بغير حق، فقد ظل النحل يعمل بغير توقف ليقدم أفضل طعام، وظلت دودة الحرير تعمل بكل همة لتقدم أفضل أنواع الخيوط وظل البقر يعمل دون شكوى؛ ليقدم أفضل غذاء للأطفال والكبار".

فنهاية القصة رسالة للتأكيد أن إيقاع الحياة لن يتوقف، وكل إنسان له رسالة مهمة، ويؤدى دوره لتستمر منظومة الحياة دون توقف، وعندئذ يتعلم الطفل ويعمل بإخلاص، وبدافع الحب الإنسانى والمشاعر الصادقة مهما كانت العقبات التى يواجهها أو تواجهه.

فالعطاء سوف يستمر، وقيمة العمل الجماعى قيمة رئيسة تشكَّلت وجلت فى نهاية القصة؛ ليبقى أثرها فى الطفل حاضرًا ومستقبلاً.

(4) قيمة الرحمة قصة "قليل من الراحة فوق السلالم"[23]

فكرة قصة "قليل من الراحة فوق السلالم" تدور حول مأساة الطفولة العاملة المعذبة، فى مجتمع قلَّ فيه الرحمة. ثم تطلع بطل القصة/الطفل إلى العيش بسلام مع الآخرين، رغم العنف والذلة والمهانة التى تواجهها هذه الشريحة الاجتماعية البريئة، فافتقاد قيمة الرحمة مردها إلى قسوة قلوب بعض الكبار للصغار.

والقصة التى معنا تحمل عديدًا من الدلالات تبدو من عنوانها أهمها: إحساس الطفل بطل القصة بالذلة والمهانة، وهو يعمل صبيًا فى محل بقالة، ويقوم بتوصيل الطلبات للبيوت، فهذا الإحساس ليس من طبيعة العمل الذى يؤديه، ولكنه إفراز من قسوة معاملة المجتمع –فى بعض الأحايين– للأطفال.

ونستمع إلى المونولوج الداخلى للطفل، وسرده لما يشعر به "تضايقت كثيرًا فى البداية، عندما كان الناس يغلقون الأبواب فى وجهى ويتركوننى واقفًا فوق السلالم أمام الأبواب".

فالطفل يستشعر الرحمة من القسوة – وشتان ما بينهما – والنص السابق يحمل رسالة من القاص للمجتمع، بحسن التعامل مع الطفل. وكما قرر علماء الطفولة أن المونولوج الداخلى –غالبًا– يعكس حالة نفسية غير مستقرة، ويحدث للطفل "إذا لم تكن علاقته بالآخرين وطيدة، فإنه فى مرحلة الحديث المنفرد مع النفس (المونولوج) أو حديثه مع نفسه وإن كان فى الظاهر يتحدث مع الآخرين"[24].

ويأتى دور الأم برحمتها؛ لتطيب من خاطر طفلها "إنهم لا يقصدون إهانتك".

ويسرد القاص ويوظف حوار الطفل مع أمه؛ ليكشف عن مفارقة فنية مهمة بين موقف المجتمع ممثلاً فى سكان قلوبهم قاسية، وبين موقف مؤسسة تعليمية/ المدرسة وما فيها من رحمة "عندما كنت أذهب لزملائى فى المدرسة قبل أن تطلبى منى أن أتركها لم يعاملنى أحد مثل هذه المعاملة".

ثم يصور القاص هذا المشهد المأساوى، وأسلوب عنف بعض الكبار: "... كان السلمُ مظلمًا، وبحثت عن زر الكهرباء فلم أجده وفجأة وجدت نفسى أتدحرج من فوق السلالم. وصرخت فى فزع فانفتحت أبواب بعض الشقق،

واقترب منى رجل أمسكنى بقوة من ذراعى وأوقفنى كانت ساقى تؤلمنى بشدة. صرخ الرجل فى وجهى: ما الذى جاء بك إلى هنا بالدور الثالث؟ لقد ظن أننى لص أو متسول!! لم أجب عن سؤاله. كانت الدموع تنزل من عينى وأنا أقول: رجلى كسرت لا أستطيع أن أمشى على رجلى".

فمازالت معاناة الطفولة البائسة ترسم بدقة قسوة المجتمع، هذه القسوة وقد تمخض منها الطفولة المشردة الضائعة.

واستطاع القاص من خلال كثرة توظيفه لأفعال الأمر، تصوير المأساة التى يعيشها الطفل/ بطل القصة، وكل طفل على شاكلته "اذهب بهذه الطلبات بسرعة أغلق البابُ فى وجهى وهى تقول: انتظر". ثم أسلوب التحذير والوعيد "إياك أن تقترب من المصعد". ثم أسلوب الترهيب: "سأكسر رجلك إذا وضعتها داخل الأسانسير – سألقى بك إلى الدور الأرضى".

فتنوع الأسلوب وقوته يجذب الطفل المتلقى ويثيره "فالعناصر الأساسية التى تميز أسلوب قصص الأطفال هى: الوضوح، والقوة، والجمال. فوضوح الأسلوب يعنى أن

يكون فى مقدور الأطفال استيعاب الألفاظ والتراكيب وفهم الفكرة ... وقوة الأسلوب عنصر آخر يكمل الوضوح ويتمثل فى إيقاظ حواس الطفل وإثارته وجذبه كى يندمج وينفعل بالقصة عن طريق نقل انفعالات الكاتب فى ثنايا عمله القصصى وتكوين الصور الحسية والذهنية.

أما جمال الأسلوب فهو صفة ثالثة فى أسلوب القصة الجيدة. فوضوح وقوة الأسلوب هما عنصران جماليان"[25].

ثم توالى الأسئلة التى تصور حجم المسؤلية وضخامتها "هل أحضرت كل ما طلبناه بالتليفون؟ ما الذى جاء بك إلى الدور الثالث؟ من أنت؟ وماذا تقول؟" فالأحداث متوالية ومتصلة بفضل سرعة الإيقاع اليومى لبطلنا الطفل، فانعكس أثر ذلك على معمار القصة، فلا مجال للاستطرادات الرتيبة، وهذا فى حد ذاته يضفى مزيدًا من قيمة جماليات القصة، ودراميتها المؤثرة السريعة.

"الحدث يجب أن يكون متصلاً فى حركة نامية ينتشر بسرعة ليكتمل تأثيره. إن الاستطراد أو التعليقات تعمل على تدمير الحركة بشكل مطلق، فالأحداث يجب أن تكون متصلة الحدث يلى الآخر، كل منهم فى مكانه الصحيح دون

تفسيرات أخرى أو توصيف إلا ما كان ضروريًا لتوضيح الحكاية التى يجب أن تسير بشكل منطقى"[26].

فقوة التماسك والتلاحم فى القصة أثرى فنياتها، فمن الطبعى أن مكان صبى البقال يتوزع ما بين محل البقالة وسكن العملاء؛ لتوزيع الطلبات. ومن الطبعى أن تكون الشخصيات على صلة وثيقة ببطل القصة، وأن يتفاوت تعامل الشخصيات المسطحة مع الشخصية الرئيسة، وبفضل حبكة تقوى الأحداث منذ بدايتها "وحبكة القصة الناجحة هى التى تقوم على تخطيط جيد للأحداث يبدأ من البداية وتتنامى الأحداث، ويتأجج الصراع حتى القمة ويكون هذا النمو عن طريق الصراع"[27].

أضف إلى ذلك "أن تكون الحبكة فى قصص الأطفال بسيطة جدًا مع مراعاة التدريج مع التقدم فى العمر بعيدة عن التفريع والاستطراد"[28] فيتمخض عن ذلك رسم صورة كاملة دقيقة لمعاناة هذه الشريحة البائسة المحرومة من الطفولة السعيدة، والمطحونة فى رحى الحياة بقسوتها وجبروتها.

ويزداد العنف وتزداد القسوة "وعدت أجر ساقى لأصعد السلالم للمرة العشرين فى ذلك الصباح لأصل إلى الدور السادس. البوابون فى العمارات التى أذهب إليها يمنعوننى من استخدام المصاعد، يظنون أننى ولد من حديد لا أتعب".

ويزداد الاضطهاد والبطش بالطفل من قبل البوابين وسكان العمارات "عندما رآنى البواب صاح: إياك أن تقترب من المصعد سأكسر رجلك إذا وضعتها داخل الأسانسير".

وبمرارة وألم يصور القاص مدى عنف المجتمع/ سكان العمارة، الواقع على الطفل فى مشهد مأساوى مرير "صفعنى صفعة شديدة على وجهى فانفجرت أبكى وأقول: يا عم تعبت من السلالم وجلست".

إضافة إلى عنف وقسوة البقال مع الطفل "... وفجأة وجدته يضربنى بقبضته فىصدرى بعنف وهو يقول: ألا تعرف كيف تحافظ على ما تتسلم من نقود. هذا الجنيه مخصوم من أجرك اليوم".

ومع كل هذه الآلام والمعاناة، فإن الطفل يشعر بمسئوليته، أو قل كفالته لأمه. ويحرص فى الوقت ذاته على إرضاء البقال – فهو فى صراع تخر منه الجبال – وهنا يتجسد الجانب الإنسانى المتأصل فى الطفل وكل طفل، شريطة أن يجد الصدر الواسع والقلب الحنون "أنا حريص على إرضاء أمى، وحريص على إرضاء عم صلاح صاحب محل البقالة وحريص على أن أرضى الزبائن ... وأنا أعمل من السابعة صباحًا حتى الثامنة مساء".

ويتجلى شظف العيش ومرارته فى هذا السرد المأساوى "وأمى تنتظر يوميتى وما يمنحنى الزبائن من هبات؛ لتشترى الخبز والفول المدمس لعشاء أخوتى وإفطارهم".

ثم يقوم الكاتب بسبر أغوار نفس البطل، والتى مع كل هذه المعاناة توَّاقة إلى العلم والمعرفة، أو قل قيمة حب العلم وسط معاناة البطل اليومية. فعندما رأى شقة فيها مكتبة حدَّث نفسه "هل أستطيع أن أطلب كتابًا من هذه الشقة التى كانت تشبه المكتبة". فهذا السؤال كغيره من الأسئلة لا جواب له عند الطفل ولا عند الكاتب، ما دام الحال على

ما هو عليه من معاناة وفقر ومطاردة مستمرة لا نهاية لها. فالقاص تعمد أن لا يقدم إجابة، ليثير دهشتنا ومن قبلنا الطفل.

ويأتى قرار الطفل فى نهاية القصة، بضرورة العمل وتحمل الألم؛ ليستطيع العيش "إذا لم أعمل لن نأكل لابد أن أستمر فى العمل وأن تحمل آلام ساقى ومشقات صعود السلالم ... والامتناع عن محاولة الحصول على أية راحة بالجلوس فوق سلالم البيوت".

وكأن هذه النهاية السوداوية تصور عمق المأساة، التى يكتوى بنيرانها الطفل، عندما يعجز عن الالتحاق بالمدرسة، ويتجه نحو سوق العمل، ويلقى أشد المعاناة والقسوة من المجتمع "وقانون الطفل الصادر عام 1996 لا يسمح للطفل بالعمل أكثر من ست ساعات فى اليوم على أن تتخلل هذه الساعات مدة لا تقل عن ساعة للراحة، ولا يغفل القانون حق الطفل فى خلال هذه الساعة من مأكل ومشرب ثم طبيعة العمل المناسبة لهذا الطفل"[29].

فمثل هذه القصة تطرح سؤالاً. ماذا نفعل بحق الأطفال على الكبار لمثل هذه المشكلة الواقعية؟ وماذا يفعل الطفل إذا ضاق به سُبل العيش واشتدت به المحن؟ وماذا يكون تفكير الطفل المتلقى أمام هذه النهاية والتى أتصور أنها مفتوحة، لمستقبل مجهول للبطل؟ إنها نهاية مفتوحة لمغزى فنى "ويمكن أن نترك القصة دون أن يقدم حلاً جاهزًا بل تتركه يفكر ويستنتج بنفسه ويعمل عقله ومشاعره فى الوصول إلى النهاية المناسبة"[30] على الرغم من ميل الدكتور "محمد حسن عبد الله" إلى "خاتمة محددة فلا نقبل النهايات المفتوحة"[31].

أرى أن الإجابة تتفاوت بقدر تفاوت تفكيرنا ووعينا وتقديرنا للمشكلة، وتقدير المرحلة العمرية للطفل. ولكن القاص استطاع الكشف عن مشكلة واقعية تهم قطاع الطفل وشريحته؛ لأنها قد تؤدى إلى سلامة المجتمع، إذا توفرت قيمة الرحمة، وكما قرر علماء النفس: "أن الأحداث الاجتماعية فى حياة الطفل تؤثر فى شخصيته فيما بعد"[32].

وثمة تشابه بين القصة وقصص عديد من الكتاب، كالمنفلوطى فى "عبراته" وصورته "لليتيم"، ويوسف إدريس فى "نظرة" ... فهل نعيد النظر فى تعاملنا مع الطفل – رجل المستقبل – بالرحمة بدلاً من القسوة، قبل أن تستشرى القيم السلبية. أتصور أنها بيئات وقيم وثقافات قبل كل شئ وبعد كل شئ.

(5) قيمة الإيثار قصة "دنانير لبلبة"[33]

لقد تجسدت عدة قيم فى هذه القصة "دنانير لبلبة" ومن أبرزها قيمة "الإيثار" وسوف نجليها بعد قليل. والقصة تتضح من عنوانها، فالعنوان بمثابة الشفرة، فمنه نتعرف على أحداث القصة وعناصرها.

فالدنانير أو قل المال، قد يُوظف فى الخير وللخير، وقد يسلك غير هذا السبيل لكن فى هذه القصة وغيرها من قصص – كما لمسنا عند الشارونى– فإنه يُسلط عدسته على الجانب الإنسانى، بما يحمل من قيم وجمال.

واستطاع القاص تشكيل بناء القصة تشكيلاً جماليًا مازجًا بين فنية الواقع ورحاته الخيال؛ ليغذى فكر الطفل

ويملأ وجدانه بأسلوب فنى غير مباشر. وهذا فى حد ذاته يمثل براعة التكنيك الفنى عند الكاتب، وظهر فى توظيفه للحوريات الجميلة، وأرى أن القصة تتفق إلى حد كبير مع مرحلة الطفولة المتوسطة (الخيال الحر/المنطلق من سن 6: 9) حيث إن الطفل مولع بالخيال، مع رغبته فى الإلمام بكثير من الخبرات، وقدرته على الانتباه لمدة طويلة؛ لمعرفة ما وراء الأشياء والأحداث.

فتوظيف عناصر جذَّابة كالحوريات فى القصة يجعلها موغلة فى الخيال، وقريبة من قصة "أطفال الغابة"[34] لمحمد عطية الإبراشى، حيث قامت الحوريات بأدوار كلها رحمة كحراسة الأطفال من أخطار الغابة، وإهداء أكياس النقود، وحُلى ثمينة.

فبطلت القصة "دنانير" تعمل مع زميلتين لها "ناعسة وجميلة" فى منزل كبير لثرى وتميزت "دنانير" بالإخلاص فى العمل والأمانة. لكن "ناعسة" و"جميلة" كان شغلهن الشاغل الاعتناء بمظهرهن، وإسناد كل الأعمال المنزلية إلى دنانير، والتى لم تأب أى عمل "كانت تقوم بأغلب أعمال المنزل. إذ اعتادت أن تؤدى عمل زميلتيها بالإضافة إلى

نصيبها من العمل. كانت تشتغل طوال النهار من الفجر حتى منتصف الليل دون أن تجد دقيقة واحدة تهتم فيها بنفسها".

فرسم شخصية البطلة –من خلال أعمالها– يعكس مجريات الأحداث. ثم يضفى القاص على البطلة مزيدًا من الصورة المأساوية؛ لتتكامل معالم الشخصية؛ ولتأتى النهاية طبيعية "لم يكن لها أخ أو أخت، وقد فقدت أباها وأمها، ولم يكن لها صديق فى الدنيا سوى جدتها".

وهذه من جماليات قصة الطفل، وأعنى عناصر التشويق، أو قل جماليات التشويق "إن عناصر التشويق فى القصة لا ينحصر فى عنصر واحد فقط من عناصرها وإنما يكمن ذلك فى كل مكوناتها ... ومن هذه العناصر ما يلى:

الحتمية فى العمل الفنى لأنه يتدرج بالقارئ من مرحلة إلى مرحلة أخرى تدرجًا تلقائيًا غير متكلف، والنمو الشعورىفى القصة، وتحرك الشخصيات وتحاورها تحاورًا طبيعيًا، واستخدام التعبيرات المنظومة، والصور المتكررة، والعبارات القصيرة، والألفاظ السهلة ..."[35].

فالتشويق عنصر فنى لقصة الطفل "إن التشويق هو الذى يجعل القصة عملاً فنيًا مقروءًا، ولا ينحصر فى عنصر من عناصر بناء القصة بل يجب أن يحرص الكاتب على بثه فى كل المكونات: العنوان، والشخصيات، والمواقف، وصياغة الحوار، والحوار، والخاتمة"[36].

وكما قرر أحد رواد أدب الأطفال "التشويق مطلب مهم فى الشخصية؛ لتستطيع استهواء الأطفال وإحداث التعاطف والاندماج معها سواء كانت تلك الشخصيات من الحيوان أو الإنسان أو الشخصيات الأخرى المحببة فى عالم الأطفال"[37].

واعتمد الكاتب وهو يضع الشخصية فى إطارها الفنى، على الوصف التقليدى "صورة للشخصية" بكل ما تحوى من ملامح ومعالم. إضافة إلى وصف الشخصية من خلال دورها/ جوهرها الحيوى فى فنية سير الحدث ودفعه، وهو فى حالة توافق أو تماس أو تصادم، مع الأحداث الفرعية الأخرى.

ثم يرسم القاص صورة الجدة، والمكان "الكوخ" الذى تقطن فيه "وجدتها سيدة عجوز فقيرة جدًا كانت تعيش فى كوخ صغير قديم لا يبعد كثيرًا عن المدينة التى تعمل بها لبلبة. لم يكن الكوخ صالحًا للسكنى".

فوصف المكان يلعب دورًا رئيسًا فى رسم الشخصيات ووصفها، وما تحمل من دلالات تتواءم مع سير الأحداث، وإمكانية تقبلها ومعايشتها. فهذه الحياة بفقرها المدقع جعلت البطلة تتحدث مع نفسها/ مونولوج داخلى، يرنو إلى حياة كريمة، مع حرصها على الالتزام بقيمة الإيثار "كم تكون الحياة حلوة إذا استطعت أن أعيش مع جدتىفى منزل صغير جميل نظيف تحيط به حديقة أقطف منها الورود والأزهار كل صباح، وأن تكون لدينا قليل من النقود لشراء ما تحتاج إليه من ملابس وأن نجد دائمًا طعامًا كافيًا".

وظلت لبلبة فى عملها بكل جدٍّ ونشاط، حتى ينتابها الإرهاق. وفى صورة فنية من القاص يرسم هذا المشهد "وعندما انتهت من تنظيف آخر طبق، كان قد انقضى من

الليل شطر كبير، فزحفت فوق درجات السلم، لتصل إلى غرفتها التى تقع فوق السطح".

وتأتى المفاجأة للبطلة عندما استيقظت من نومها، ووجدت داخل جوربها دينارًا ذهبيًا، ووجدت بعدها دينارين فى كل يوم، فسألت سيدتها فقالت لها "إن هذا طبعًا من فعل الحوريات"، وكأن رسالة القاص للطفل تحمل قيمة نبيلة فحواها أن الجزاء من جنس العمل، فمن يُؤثر يحصد الخير.

وينتقل القاص إلى تسليط الضوء على خلق الإيثار كقيمة عظيمة، وقد توَّفر فى شخصية البطلة بشكل كبير، باعتباره قيمة عظيمة، وتجلىَّ فى مواقف عديدة أهمها: عندما شاهدت طفلة صغيرة حافية القدمين تبكى، وهى تحتمى من ماء المطر، فمدت لبلبة يد المساعدة لها "يا أختى هذه القطعة الذهبية تكفى لعشائك وأيضًا لكى تجدى لك مأوى تبيتين فيه الليلة".

فهذا الجانب الإنسانى يقابل بالسخرية والاستهزاء من ذوى القلوب المتحجرة المليئة بالأنانية "ناعسة وجميلة". وكأنها ثنائية ومفارقة لما يدور فى دنيا الناس "ودهشت ناعسة وجميلة عندما سمعنا كيف ضحت لبلبة الصغيرة

بواحد من دنانيرها الذهبية وقالت لها: يا لك من فتاة حمقاء وكيف تعطين واحدًا من دنانيرك الذهبية الثمينة الشحاذة الصغيرة. لقد كان بوسعك أن تشترى أغلى وأثمن الأشياء بهذا الدينار الذهبى".

وعلى الرغم من ذلك فإن جانب الخير كان متأصلاً فى وجدان البطلة، ويشكل شخصيتها "ولكن لبلبة لم تلق بالاً إلى تأنيبهما بل كان السرور يغمرها لأنها استطاعت أن تساعد تلك الفتاة المسكينة الصغيرة".

ثم أنفقت الدينار الثانى على سيدة فقيرة تحمل طفلاً صغيرًا. والدينار الثالث أعطته لامرأة عجوزة، حتى نفدت الدنانير الثلاثة. وحينئذ يأتى الحل وينفرج الضيق؛ لنصل مع الحبكة الفنية المدعمة بخيال يشاكل أساطير ألف ليلة وليلة والسندباد "فى مكان السيدة العجوز كانت تقف فتاة حلوة ترتدى ثوبًاسندسيًا أخضر، وشعرها الذهبى البديع ينساب على كتفيها الرشيقتين، وعلى رأسها تاج يتلألأ وألوان خلاَّبة، ولها زوج من الأجنحة الذهبية اللامعة".

وبعد هذا السرد الجمالى للحسناء ذات الرداء الأزرق، الذى يُنَمِّى الحس الجمالى للأطفال وكذا الأخلاقى، تأتى المكافأة من قبل الحوريات "لبلبة الصغيرة لقد أتينا من أرض الحوريات لكى نكافئك على الدنانير الذهبية التى أعطيتها لنا ... سنمنحك فى مقابلها الحقَّ فى إبداء ثلاث رغبات وبذلك تتحقق لك أفضل أمانيك".

فاستحضار أو قل توظيف الحوريات؛ ليضفى على القصة جوًا خياليًا لأشخاص لا وجود لهم، مثلما قدَّم الكاتب قصة "الشاطر محفوظ" وقصته "مع الأميرة الجميلة" وكيف وظَّف شخاصًا لهم قدرات خارقة "فالخيال يتيح للأطفال أن يتصوروا عوالم غير التى يحيونها ويدركون ما لا يمكن إدراكه عن طريق الحواس، ويشكل فى الوقت نفسه عاملاً للاستمتاع بالآداب والفنون وأنماط السلوك"[38].

على أية حال فإن ثراء القصة بزغ فى محاولة الدمج بين الواقع والخيال "إن نجاح الخيال رهن بتواصله مع الواقع وارتكازه عليه والعمل على إعادة تشكيله على نحو يؤدى إلى تنمية خيال الطفل بصورة صحيحة خلاَّقة"[39] وهذا مما يساهم فى إبراز فنية القصة وأثرها الفعَّال فى

تنمية خيال الطفل، انطلاقًا من الواقع أولاً، ثم الانطلاق به نحو عالم الخيال كعملية مزج وإعادة تشكيل له مرة أخرى فى محاولة للإثارة والمتعة والتشويق، مع القيمة التى يحرص المؤلف على تقديمها من بين العناصر الفنية للقصة "فالخيال القصصى ينمى لدى الأطفال المعرفة بالكون والكائنات بالطبيعة ومفرداتها"[40]. وأكدها الشارونىفى مقولاته "نريد للأطفال أن ننشئهم على التواد والوفاء والتعاطف، إنها دوافع تساهم فى تماسك المجتمع وتدعيم التواصل الوجدانى بين الطفل ووطنه وأسرته والمحيطين به بدل الاتجاه نحو الفردية والبحث عن المصلحة الخاصة"[41].

وبنهاية القصة تتحقق أمانى لبلبة/ البطلة بمنزل جميل حوله حديقة غناء، وحصولها على أموال كثيرة أغنتها عن العمل، وصارت هى وجدتها فى عيشة رغدة. فالقصة رسالة من القاص؛ لتؤكد أهمية وقيمة بذل الخير والإيثار. وكأن نهاية القصة إشارة قوية إلى أن الجزاء من جنس العمل، وهذا يغرس مبدأ الثواب والعقاب فى الطفل "حين يؤدى تتابع السلوك إلى الثواب والمكافأة فإن ذلك يزيد من احتمال قيام الطفل بنفس السلوك فى الظروف المشابهة فى المستقبل"[42].

(6) قيمة التسامح قصة "إنقاذ عازف المزمار"[43]

فكرة القصة تشير إلى أن انتشار قيمة التسامح تؤدى إلى الحب والسلام بين الناس، ونشر مظلة الأمن والأمان. وحينئذ يأخذ كل ذى حق حقه مع تأدية دوره المنوط به، شريطة عدم الاستهانة به، فمهما كان المظهر أو ما يصدر من صوت كصوت "البومة المصرية"/ البطلة. فما نستهين به ونواجهه بالعنف يغيب عنا –عن عمد أو عن غير عمد– دوره الحيوى فى اكتمال منظومة الحياة.

وحيث إن عنوان القصة، بمثابة العلامة والكاشف عن فكرتها وأحداثها فإن عنوان القصة التى بين يدينا يثير مشكلة تطلبت الإنقاذ لفنان يعزف فماذا حدث؟ فى بداية القصة يطالعنا القاص بتقنية فنية عالية، عندما أثار الدهشة بتوظيفه لعالم الطير ممثلاً فى البومتين المصرية والغربية، واللقاء بينهما على أرض مصر، فبدأ قصته بوصف مكان البومتين "فوق غصن مرتفع من شجرة سنط كبيرة أحست البومة بالدهشة، عندما وجدت بجوارها بومة غريبة أقل منها حجمًا وشكلها يختلف عن شكل بقية البوم المصرى الذى تعيش معه".

فالقاص فى بداية السرد حدَّد المكان فى أرض مصر، وفوق شجرة السنط بدلالتها الضاربة فى أعماق التاريخ. ثم كشف عن شخصيتى القصة ممثلة فى البومة المصرية، ثم البومة الغربية، وقد حدَّد وصف الأخيرة بقلة حجمها، فهذا الوصف الدقيق يحمل مغزى الرشاقة والأناقة وخفة الجسم. وهذه مفارقة تجمع بين نوع واحد لكن شتان ما بينهما فى الحجم – كما رأينا – وفى المعاملة. والحوار الآتى يصور ذلك "سألت البومة المصرية البومة الغربية: من أنت؟ ومن أين جئت؟ أجابت البومة الضئيلة الحجم: أنا من وطن أوربى. وقد جئت مع صاحبى عندما جاء لزيارة مصر".

فالنص يحمل قيمتين. أحدهما: مضمونية، وأعنى قيمة التعارف ودوره فى التقارب والتآلف والتعاون بين الأفراد والجماعات والأمم. هذه القيمة التى يجب أن يعيها الطفل منذ طفولته؛ لتتسع دائرته الحياتية، وخاصة إذا علمنا أن قصص المكتبة الخضراء تستهدف – غالبًا – فئة عمرية تتسم بالوعى والتبصر، وأعنى الطفولة المتأخرة، وعلماء النفس –كما ذكرت آنفًا– حثوا على إثراء خيال الطفل

بواسطة تقمص الشخصيات، وتشخيص المخلوقات من حيوان وطير ونبات، وتجسيم المعنى. ونحن بدورنا نريد من الطفل الاتصال بمثل هذه الأنواع؛ لتنمية ذوقه وتنشيط عقله "وأن يتمثل خياله ما فيها من جمال حتى يتذوقه أو يؤثر فيه، بناء على ما بين أطراف الصورة من علاقات"(44).

والدلالة الأخرى للنص القصصى السابق، وهى قيمة فنية، حيث تبدو خلال أسلوب الاستفهام، ودوره فى تبصير الطفل بكيفية توجيه الأسئلة ذات الأولوية عندما يجهل شيئًا أمامه.

ثم ينمو الحوار وهو "من أهم الوسائل التى يعتمد عليها القاص فى رسم الشخصيات ... والحوار الرشيق المُعبر سبب من أسباب حيوية السرد وتدفقه ... ويجب أن يتوافق الحوار مع عناصر القصة الأخرى ويتناسب مع المواقف والحوادث ويعبر عن طبيعة الشخصية"(45).

لينمو من خلاله المغزى، وهو رفق الأوربيين بالطير والحيوان، وفى المقابل قسوة بعض العرب – على الرغم من أن الإسلام حث على الرفق بالحيوان – وإن كانت هذه

التيمة جعلت القاص يجرى حواره ويُجسد أحداثه "هل الناس فى أوربا يهتمون بمصاحبة البوم عندما يسافرون؟!.

أجابت البومة الغربية: بل أكثر من هذا صنع لى صاحبى تمثالاً جميلاً من الرخام الأبيض وضعه فوق المدفأة فى الغرفة التى يستقبل فيها ضيوفه. ازدادت دهشة البومة المصرية وتعجبت وقالت: هل أفهم أنهم لا يقذفونك بالطوب؟! هنا ظهر الغضب على وجه البومة الغربية وقالت: ما هذا الكلام الذى أسمعه منك؟! إنهم عندما يريدون إظهار حكمة شخص يقولون عنه إنه حكيم مثل البومة".

فالكاتب يصف سلوك بيئتين: بيئة غربية يسود فيها المحافظة على سلامة طيورها وحيواناتها – ويعرف عندهم جمعية الرفق بالحيوان!! – وبيئة عربية يغلب عليها العنف والقسوة – مع أن هذا يخالف تعاليم الإسلام –فى تعاملها مع الطير والحيوان. واستطاع الكاتب تقديم هذه الرسالة بتقنية فنية، ولكن المغزى الأكبر من ذلك أنه إشارة إلى قيمة الفرد وسلامته، وحقه فى العيش الكريم. فثمة ضياع لهذه القيم فى مجتمعنا، مع أننا أولى منهم فى ذلك.

وعندما يتبصر الإنسان العربى ذلك فماذا يُصاب؟ إنه يصاب بالهم والغم والعجز "ظهر الحزن على وجه البومة المصرية، وصمتت دون كلام".

ثم يصور الكاتب المأساة وضياع القيم وأذى القوى للضعيف دون وجه حق "وأحست البومة الأجنبية بأحزان صديقتها المصرية. فاقتربت منها وسألتها: ماذا حدث؟ لماذا هذا الحزن؟ قالت البومة المصرية: ألم تلاحظى ما أصاب جناحى".

وبتقنية ملحوظة ينقل القاص الحدث من الحوار الصوتى إلى الحوار البصرى؛ ليكون ألصق بذهن ووجدان الطفل "وتأملت البومة الأجنبية جناح صديقتها ولاحظت ما فيه من إصابة مؤلمة، فسألتها فى إشفاق: من فعل بك هذا؟".

فمثل هذه الصورة البصرية ببنيتها الدرامية، تؤكد عمق المأساة، وانتزاع الرحمة من قلوب الأقوياء، وتتصاعد الأحداث وتصل ذروتها بسؤال طبعى، من شأنه لفت الانتباه، وإثارة المشاعر: "من فعل بك هذا؟ أشارت البومة المصرية إلى صبى من الرعاة يجلس عند جذع شجرة

السنط، يعزف على ناى من الغاب، فيملأ الجو بنغماته الحلوة، وقالت: سمع هذا الصبى صوتى فرمانى بقطعة حجر وأصاب جناحى.

ازدادت دهشة البومة الأوربية وقالت:

كيف يلحق هذا الفنان الرقيق الأذى بك؟! إنك لا تذهبين إلى مكان إلا وتقومين بتنظيفه من الفئران والثعابين".

فمثار العجب أن المصائب قد تأتى ممن يعشقون الجمال، ولا يدركون قيمة الآخر، رغم ما يقوم به من خدمات جليلة. أليست هذه أنانية؟ أليست هذه مصيبة عصرنا؟ أتصور أن هذه الرسالة أراد الكاتب تقديمها فى منأى عن أسلوب الوعظ والتقرير. وهذه مزية فنية قدَّمها الكاتب؛ ليعرف الطفل وظيفة البومة، وفى الوقت ذاته يلفت الطفل نحو مواطن الجمال فى المخلوقات، وتحبيبه فى كل ما هو جميل، ويستمتع بحياته بشكل هادئ متزن، يدفعه نحو التفاعل الإيجابى مع مجتمعه "وجعل الطفل – الذى هو رجل وامرأة المستقبل – قادر على الاستمتاع بحياته، قادر على تجميل الحياة من حوله له ولغيره، قادرًا على الابتكار

والإبداع والتخيل، وكلها سلسلة من الحلقات متصلة غير منفصلة ومتعلقة بحياة الإنسان العملية أيًا ما تكون مهنته أو شكل حياته العملية، وبذلك يصبح عضوًا منتجًا إيجابيًا خلاَّقًا فى زمن القرن الذى يعتمد أكثر ما يعتمد على المعلومات والمعارف المتنوعة"[46].

ثم يسرد الكاتب مشهدًا تصويريًا، يُجسِّدُ من خلاله قيمة التسامح، ومقابلة السيئة بالحسنة؛ ليتعلم الطفل كل هذه القيم السامية ويتحلى بها فى مستقبله "فجأة لفت نظر البومة شئ ما وفى الحال طارت مغادرة مكانها، لتنقض بسرعة على الأرض بجوار الصبى عازف المزمار وفزع الصبى لكنه سرعان ما شاهد البومة تمسك بين مخالبها ثعبانًا طويلاً كان يتسلل مقتربًا منه وهو لا يدرى".

فهذا المشهد المنبثق من الأخلاق الكريمة، يُجسِّد قيمة التسامح، والتى لا تتغير مهما لاقت من محن وآلام. فمزية قصص الحيوان أن لها "هدف أخلاقىوتعليمى فيجدون انتصار الخير على الشر"[47].

وتنتهى القصة بنهاية سعيدة، عندما سرد الكاتب رد فعل "العازف"، إذ تحولت الكراهية إلى حب وسلام، بفضل قيمة التسامح "وفوق غصن الشجرة وقعت البومة على فريستها الثعبان، وراحت تمزقه قطعًا، بينما وقف العازف يتطلع فى امتنان إلى البومة المنقذة. وعندما عاود الصبى الفنان العزف كانت أنغامه هذه المرة تعبيرًا عن الشكر العميق للطائر الشجاع".

وكأن الأشياء عادت إلى طبيعتها، وكل إنسان ينبغى له أن يقوم بدوره، ويكفى أن هذه القيم – التسامح والحب والسلام – استطاع القاص أن يقدمها من خلال سرد فنى جذَّاب مع الاستعانة بأساليب الاستفهام والتكرار، ثم تنامى الأحداث حتى وصلنا إلى نهايتها التفاؤلية "فالنهاية هى الشكل الفنى الذى تختم به القصة والطفل يجب أن يستمع إلى نهاية سارة سعيدة مبهجة مرحة"[48].

ومن جودة القصة أنها تشكلت من خلال عالم الطير، وفى هذا متعة وإثارة للأطفال فى مرحلتيها المبكرة والمتوسطة، إضافة إلى تنميتها للوعى الجمالى للطفل، من خلال التشخيص والذى هو "إضفاء الصفات الإنسانية

على الآخر سواء كان نباتًا أم حيوانًا أم طيرًا أم جمادًا يُدعِّمُ الوعى الجمالى لدى الطفل؛ لأنه من خلال هذا التشخيص يتحاور الطفل مع أشياء العالم ..."[49].

فالطفل يستمتع بالحكاية على لسان الحيوان "حيث يتم التصرف كالأشخاص الأمر الذى يلائم عقلية الطفل التى تميل إلى الخرافة، علاوة على أن النسج القصصى قصير والحوار هادف، والمشاهد الوصفية تكون دقيقة وسريعة"[50].

وهذا ما لمسناه فى قلة عدد الشخصيات فى القصة، وتحديد المكان والذى لم يبرح شجرة السنط. ولاحظ أن القاص بدأ القصة بقوله: "فوق غصن مرتفع من شجرة السنط" ونهايتها فى المكان ذاته "وفوق غصن الشجرة".

فثمة إشارة فنية إلى عدم الانكسار مهما كانت الآلام، والاستمرارية فى أداء الأدوار مهما كانت العقبات. وكل هذه المفاهيم والقيم تجلت فى بساطة العرض وجمال الأسلوب، ورحابة الخيال الابتكارى، بلغة سهلة سلسة مُشوقة، تُنمى ثقافة الطفل، وتثرى من مساحة الخيال عنده، مع التحلى بالقيم النبيلة والمعانى السامية.

إضافة إلى ما سبق فإن المضمون ثرٌّ، ولذلك يمكن القول إن بساطة الحكى وثراء المحكى، ينعكس أثرهما على شخصية الطفل العربى.

ويبقى السؤال المهم: هل توظيف شخصية البومة، مما يألفه الطفل فى بيئته وواقعه؟ أم أن التوظيف من باب إثراء معلومات الطفل؟

إننى أتفق مع المعيار الذى يرى "أن تكون الشخصية مألوفة لعالم الطفولة فى واقعة"[51].

مع قناعتى التامة أن الطفل مولع بقصص الحيوان، لما فيها من متعة وقيمة.

obeikandl.com

هوامش التطبيق

- **القرآن الكريم**

1. **يعقوب الشارونى:** صندوق نعمة ربنا. سلسلة مكتبتى 41 ط. دار المعارف 2002.
2. **أبو الحسن سلام:** مسرح الطفل. النظرية. مصادر الثقافة. فنون النص. فنون العرض ط1. دار الوفاء 2004، ص85.
3. **زياد فايد:** الطفل المصرى بين الواقع والمأمول ط1. الهيئة المصرية العامة للكتاب 2001، ص66.
4. **هادى نعمان الهيتى:** أدب الأطفال فلسفته فنون وسائطه ط1. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1986، ص155.
5. **د.** محمد صادق زلزلة: حدة الطبع وعنف المزاج عند الطفل. مقال من كتاب: الطفل العربى والمستقبل. سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربى الكويت كتاب 523 أبريل 1989، ص27.
6. **هادى نعمان الهيتى:** أدب الأطفال. فلسفته فنونه وسائطه، ص98.
7. **د.نبيلة إبراهيم:** البطل والبطولة فى قصص الأطفال. الحلقة الدراسة الإقليمية كتب الأطفال فى الدول العربية النامية ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1983، ص20. وانظر: د. هدى قناوى: الطفل وأدب الأطفال ط. مكتبة الأنجلو المصرية 2009، ص33.
8. **د. محمود فتحى عكاشة:** علم النفس النمو د.ط 2008، ص156.
9. **يعقوب الشارونى:** ليلة مظلمة فى نهاية شهر العسل. سلسلة مكتبتى 44 ط. دار المعارف 2002.

openkandil.com

10. **فريد محمد معوض:** أفراح وأحزان طفل هذا الزمان ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب 2007، ص125.

11. د. أحمد يوسف: حرب السلام. ورقة بحثية ضمن فعاليات مؤتمر السلام العالمى وتنمية المجتمع بين الواقع والمأمول. كلية التربية بالعريش فى الفترة من 22- 2008/24.

12. **لينا كيلانى:** دراسات فى أدب الأطفال. مقال بعنوان: أدب الأطفال اليوم والغد كتاب اتحاد كتاب مصر ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص157.

13. د.عواطف إبراهيم: قصص الأطفال دور الحضانة ط. الأنجلو المصرية 1984، ص187.

14. **يعقوب الشارونى:** الجائزة وأنياب النمر. سلسلة يحكى أن 47 ط. دار المعارف 2003.

15. **محمد أديب الجاجى:** أدب الأطفال فى المنظور الإسلامى. دراسة وتقويم ط1. دار عمار الأردن 1999، ص45.

16. د. سعد أبو الرضا:النص الأدبى للأطفال. أهدافه ومصادره وسماته ط1. دار النشر عمان 1993، ص136.

17. انظر: د. سعد ظلام: الحكاية على لسان الحيوان عند شوقى. القاهرة دار التراث العربى 1982، ص40.

18. د. على الحديدى: فى أدب الأطفال ط2 مكتبة الأنجلو المصرية 1976، ص162.

19. **لينا كيلانى:** دراسات فى أدب الأطفال، ص157.

obeikandl.com

20. **سارة كون بريان:** كيف نحكى لأطفالنا. ترجمة د. طارق الحصرى ط1. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر 2008، ص45.

21. **يعقوب الشـــارونى:** دراســـات فـــى أدب الأطفـــال. مقـــال بعنـــوان: عن المضمون فى أدب الأطفال العربى، ص68.

22. **لينا كيلانى:** دراسات فى أدب الأطفال، ص160.

23. **يعقوب الشـــارونى:** قليـــل مـــن الراحـــة فـــوق الســـلالم. مكتبتـــى2، ط. دار المعارف 2004.

24. **سرجيوسبينى:** التربية اللغوية للطفل. ترجمة فوزى عيسى مراجعة: د. كاميليا عبد الفتاح ط. دار الفكر العربى 1991، ص113.

25. **هادى نعمان الهيتى:** أدب الأطفال فلسفته فنونه وسائطه، ص144.

26. **سارة كون بريان:** كيف نحكى لأطفالنا، ص157.

27. **محمد حسن بريغش:** أدب الأطفال أهدافه وسماته ط2. بيروت مؤسسة الرسالة 1996، ص218.

28. د. محمد حسن عبد الله: قصص الأطفال أصولها الفنية روادها ط. العربى د.ت، ص37.

29. **فريد محمد معوض:** أفراح وأحزان طفل هذا الزمان، ص24.

30. **د. حسن شحاته:** أدب الطفل العربى دراسات وبحوث ط2. الدار المصرية اللبنانية 1994، ص29.

31. **د. محمد حسن عبد الله:** قصص الأطفال أصولها الفنية روادها، ص41.

32. د. محمود فتحى عكاشة: علم النفس والنمو، ص64.

33. يعقوب الشارونى: دنانير لبلبة. سلسلة المكتبة الخضراء للأطفال 30 ط1 دار المعارف 2005.

34. محمد عطيه الأبراشى: قصة (أطفال الغابة) سلسلة المكتبة الخضراء للأطفال ط19. دار المعارف.

35. **د. إبراهيم محمد عطا:** عوامل التشويق فى القصة القصيرة لطفل المدرسة الابتدائية ط1. مكتبة النهضة المصرية 1994، ص37.

36. **د. محمد حسن عبد الله:** قصص الأطفال أصولها الفنية روادها، ص39.

37. **أحمد نجيب:** فن الكتابة للأطفال ط2 بيروت. دار اقرأ 1983، ص32.

38. **د. هادى نعمان الهيتى:** ثقافة الأطفال. سلسلة عالم المعرفة 123 ط. المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب الكويت 1988، ص82.

39. **د. فوزى عيسى:** أدب الأطفال الشعر – مسرح الطفل – القصة ط. منشأة المعارف الإسكندرية 1998، ص297.

40. د. أحمد زلط: أدب الطفولة. أصوله ومفاهيمه رؤى تراثية ط4. الشركة العربية للنشر والتوزيع. القاهرة 1997، ص42.

41. **يعقوب الشارونى:** دراسات فى أدب الأطفال، ص46.

42. **انظر: جور كونجر وآخرون:** سيكولوجية الطفولة والشخصية. ترجمة. أحمد عبد العزيز سلامة وجابر عبد الحميد ط. دار النهضة العربية 1987، ص593.

43. **يعقوب الشارونى:** إنقاذ عازف المزمار. سلسلة يحكى أن 49 ط. دار المعارف 2003.

44. **د. سعد أبو الرضا:** اتجاهات حديثة فى أدب الأطفال ط2. دار المصطفى 2002، ص114.

45. **د. هادى نعمان الهيتى:** أدب الأطفال فلسفته فنونه وسائطه، ص146.

46. **السيد نجم:** طفل القرن الحادى والعشرين ذكاء موهبة معرفة جمال ط1. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر 2004، ص64.

47. **د. أمل خلف:** قصص الأطفال وفن روايتها ط1. القاهرة عالم الكتب 2006، ص51.

48. **د.حسن شحاته:** أدب الطفل العربى دراسات وبحوث، ص29.

49. د. وفاء إبراهيم: الوعى الجمالى عند الطفل. مكتبة الأسرة 1997، ص41.

50. **سرجيوسبينى:** التربية اللغوية للطفل، ص149.

51. **انظر: كمال الدين حسين:** فن رواية القصة وقراءتها للأطفال. الدار المصرية اللبنانية 1999، ص46.

obeikandl.com

الفهـــرست

أولاً: فى منهج الدراسة	5
هوامش المنهج	16
ثانيًا: فى التنظير	19
1- مفهوم نسق القيم	21
2- أنساق القيم وقصص الأطفال	23
3- معيار نجاح قصص الأطفال	27
هوامش التنظير	33
ثالثًا: فى التطبيق	35
1- قيمة السلام فى "صندوق نعمة ربنا"	37
2- قيمة الحرية للوطن فى "ليلة مظلمة فى نهاية شهر العسل"	52
3- قيمة العمل الجماعى فى "الجائزة وأنياب النمر"	58
4- قيمة الرحمة فى "قليل من الراحة فوق السلالم"	66
5- قيمة الإيثار فى "دنانير لبلبة"	75
6- قيمة التسامح فى "إنقاذ عازف المزمار"	84
هوامش التطبيق	94

obeikandl.com